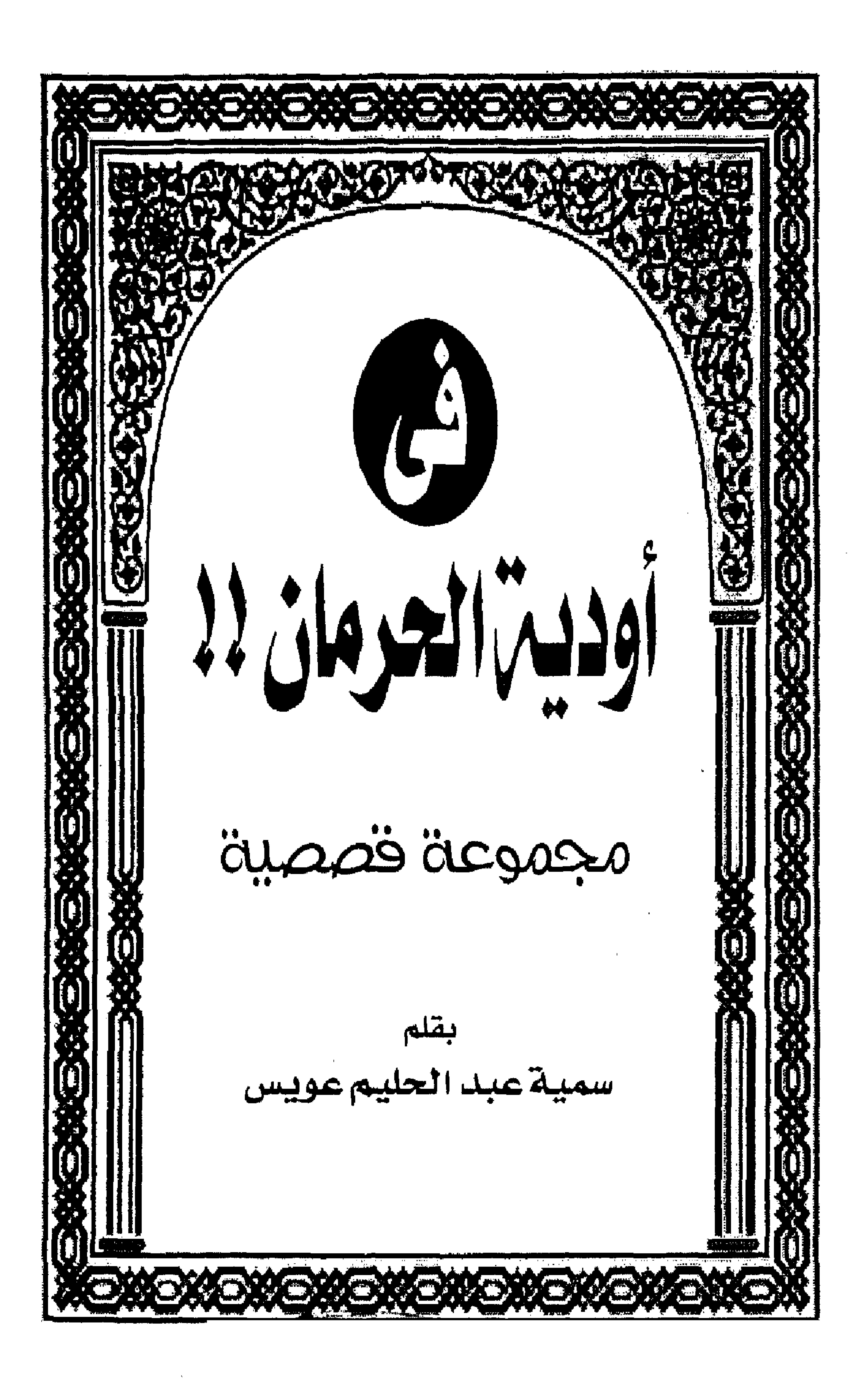

في أودية الحرمان
مجموعه قصصية
بقلم
سمية عبد الحليم عويس



في

أودية الحرمان !!

مجموعة قصصية

بقلم

سمية عبد الحليم عويس

اسم الكتـــاب : في أدوية الحرمان .

التـــأليف : أ / سمية عبد الحليم عويس .

عـدد الصـفحات : 80 صفحة .

قياس الصفحة : 16×10

عـدد الطبـعات : (الطبعة الأولى)

التـوزيع والنشـر : للمؤلف

١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

في أودية الحرمان !!

دعاء البدء

اللهم أذهب لوعة نفوسنا

وأطفئ شعلة جروحنا

اللهم إما أن تميت رغباتنا وإما أن تنعم أرواحنا

اللهم لا تعذبنا من أجل الحب مرتين :

حين تذوقنا الحب ففقدنا

وحين فقدنا الحب فتعذبنا

اللهم رضنا بقضائك وعافنا قبل ذلك

اللهم فقدنا الطريق فدلنا واسلك بنا سبل الرشاد

واهدنا مهما نسينا وابتعدنا

فأنت القريب المجيب الطبيب الحبيب !

آمين .

* * *

ولقد تبينت الأمور بغيرها
وأتى عليّ النقض والإبرام

فإذا السكون تحرك وإذا الخمود
تلهبٌ وإذا السكوت كلام

وإذا الحياة ولا حياةَ منيةٌ
تحيي بها الأجساد وهي رِمام

هذا يحل وذلك يرحل كارها
عنه فصلح تارة وخصام

فالنور لو بينت أمرك ظلمةٌ
والبدءُ لو فكرت فيه ختام

* * *

كل الحياة قيود غير أني فتى
حراً كمثلي لا يثنيه تقييدُ

برغم هذا أغني للحياة ففي
شدوي شفاء وفي نفسي مواجيد

* * *

الإهـداء

إلى كل قلب يفيـض به الأنين من تباريح السـنين . .
لقد اكتشفت أن قلوبنا الجريحة لن تهدأ إلا بالرضا بقضاء الله وأن دماءنا المسفوكة على أستار أعمارنا لن تمحوها أيدي الزمن مهما حاول الزمن وجاهد النسيان !

لهذا ففي الرضا بالقضاء والتسليم للقدر الشفاء الناجح من كل الأوجاع لأن دنيانا صحراء نادرة الواحات . . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن عِظم الجزاء مع عِظَم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط » .

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

فالحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار .

* * *

(١)
في أودية الحرمان

﴿وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهُو كظيمٌ﴾ [الزخرف : ١٧] .

(أن تنجب أنثى فهو عين البلاء !) هكذا فهمتُ هذه العبارة عن والديّ وحفظتها عن ظهر قلب ، كنت في الرابعة عشر بعيدة عن وطني الحبيب مصر حيث نشأت منذ نعومة أظفاري في الإمارات ، كان والدي طبيباً وأمي سيدة طيبة مستكينة لا تعمل لأنها تعتبر أن حياتها كلها ملكاً لنا ، ولي أربعة أخوة ذكور أنا أوسطهم ، تلك هي أسرتَي لكني كنت دوماً أشعر بالغربة بينهم فقد كان والدي يعاملني بقسوة شديدة وذلك لأني فتاة والإناث بلاء من الله يمكن أن يأتيه العار بسببي فنشأت دون حنان أبوي يُذكر . . ونحا إخوتي نحوه فعاملوني بجفاء شديد كأنني شيء لا لزوم له في المنزل يتمنون أن يرتاحوا مني بأي شكل . . وأما أمي فقد كانت سلبية لا تقدم ولا تؤخر بل تحابي أبي على حسابي لتكسب رضاه وتتقي غضبه وسطوته فقد كان ديكتاتوراً بكل معنى الكلمة . . ولذا ما ألفتهم يوماً وما ألفوني فكان البيت

بالنسبة لي ملجأ أو مأوى للطعام والمبيت لا أجد فيه غير هذا ولا أشعر بالطمأنينة فيه أبداً ، والغريب أن أمي رغم حنانها الفياض على إخوتي لم تكن تحمل لي مثقال ذرة من حب ـ حسب ما كنت أراه من تصرفاتها ـ حتى كنت أتعجب حين أرى أماً لصديقة لي تحنو عليها أو تسخو معها في العطايا ، وكنت في سن لا أدرك فيها أن حب الأم لأولادها الذكور قد يجعلها تجافي ابنتها ، لكنني فهمت حقيقة مشاعرها تجاهي بعد أن شببت عن الطوق فعرفت فعلاً وتأكدت من أن حبها لإخوتي منعها من حبي وأنساها الاهتمام بي فعرفت أنها لم تكن أماً طبيعية كاللواتي أسمع عنهن أو أقرأ عنهن في القصص والأشعار هنا وهناك .

إن قلب الفتاة قد يقبل أن يكون الأب قاسياً أو مفضلاً للذكور لكنه يأبى أن يفهم أن تكون الأم كذلك . . إن الأب لا يستطيع أن يحمل بين جوانحه لطفلته الصغيرة عواطف الأم ، فهي التي تحوطها بعنايتها ورعايتها ، وهذه هي حالها مع جميع أبنائها ، تسكب قلبها في قلوبهم حتى يستحيلوا إلى قلب واحد يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد ، تسهر عليهم ليلها وتكلؤهم نهارها وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيلهم ، ولو شئت لقلت : إن سر الحياة

الإنسانية وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة : قلب الأم .

لكني كنت أحاول دائماً التودد إليها وبرها حتى وهي تحملني من أعباء البيت ما ينوء به كاهلي ، وحتى وهي تجافيني وتمنح إخوتي الذكور ما لا تمنحني من منح غالية وهدايا ثمينة ومحبة مبذولة ، وما ذاك إلا لأن قلبي عرف الله مبكراً فهام به حباً وسعى إلى مرضاته ، وقد شكوت إلى معلمة أثيرة لديّ ذات مرة ما أعانيه فقالت لي :

ـ يا بنية . . . إياك وعقوق أمك وإن عقتك ، فقد شكى رجل إلى رسول الله ﷺ سوء خلق أمه فقال : لم تكن سيئة الخلق حين حملتك في بطنها تسعة أشهر ؟! قال : إنها سيئة الخلق ، قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ، قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت لك نهارها ؟ قال : لقد جازيتُها . قال : ما فعلت ؟ قال : حججت بها على عنقي . قال : ما جزيتَها .

قلت لها : لكني قرأت أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ فجاء بُنيٌّ له فقبله وأجلسه في حجره ، ثم جاءت بنية فأخذها فأجلسها إلى جنبه فقال النبي ﷺ : « فما عدلت بينهما » .

ويقول ﷺ : « اعدلوا بين أولادكم في النِّحل «العطايا» كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البِر واللطف » .

فأجابتني معلمتي قائلة : صدقت ؛ فعدم المساواة بين الأولاد حرام فوق أن تميز بعض الأولاَد على البعض الآخر أمر من شأنه توليد العداوة والحقد والبغضاء بينهم ويؤدي إلى قطيعة الرحم ، ولكنّ قلبك المؤمن يا بنيتي سيهديك إلى سواء السبيل فلا تخطئي في حق والديك وإن أخطآ في حقك لعل الله أن يهديها إلى الإحسان إليك ويرفع درجتك بفضل صبرك عليهما وبرك بهما .

ومرت السنوات تباعاً متشابهة حتى بلغت الثامنة عشر وقرر أبي أن نرجع لوطننا لينشئ مستشفى استثماري بعد غربته سنوات طويلة وجمعه آلاف الدولارات وجعل لكل أخ من إخوتي وديعة باسمه في البنك فلما سألته عن حقي انتهرني وقال :

ـ إذا تزوجت فليعطك زوجك ما شاء أما أنا فيكفيني أني علمتك حتى أنهيت دراستك الثانوية ، فقلت له في وجل :

ـ ألن أكمل تعليمي الجامعي ؟

ـ كلا ، لست مسؤولاً عن ذلك ، مكانك من الآن هو

البيت ولن تبرحيه حتى يأتي لك الزوج المناسب . . إن جمالك محدود وإن جاءك خاطب محترم فسيكون ذلك بفضل مركزي وجاهي وأموالي . . حتى زواجك لن أشارك فيه إلا بالقليل ومن أرادك فليدفع فيك ما يريد . . أفهمت ؟ وإياك أن تناقشيني في أي أمر من هذه الأمور بعد الآن وإَلا لبعثتك لجدتك في الشرقية تخدمينها حتى تلقى ربها . . فإن تركت لك شيئاً فبها ونعمت ولكن لا شأن لي بك بعد اليوم ويكفيني أن أطعمك وأكسوك حتى ترحلي عنا إلى بيت زوجك ! ! أو فابحثي لك عن عمل من الآن .

* * *

(٢)

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف ٩٠] . . كان حلمي أن أكون جامعية لأعمل وأسع لنفسي بنفسي دون حاجة لوالديّ أو إخوتي ، ولم يكن الزواج المبكر أبداً من أحلامي رغم ما أعانيه في أسرتي من وحشة وغربة ، لكن أبي حكم على حلمي المتواضع بالموت وظللت أياماً حزينة منقبضة أفكر هل أعمل كما لمح بذلك والدي أو أمكث في البيت خادمة بدون أجر لأسرتي التي قهرتني وحرمتني أبسط الحقوق . . وفي النهاية قررت أن أعمل عملاً يمكنني من ترك البيت والإنفاق على نفسي والبعد عن أبي المتسلط فكلمت خالتي التي كانت تعلم كل شئ عني لتجعلني أعمل في الملجأ الذي تعمل مديرة له ورجوتها أن أقيم بنفس الملجأ لكنها أبت إلا أن أقيم معها وقالت لي :

ـ أنا لم أنجب يا ناهد وأنت تعرفين مقدار محبتي لك ، وزوجي كثير السفر ، وسأقنع والديك بالأمر .

وبالفعل جاءت في الغد إلى بيتنا وأخبرت والديّ بأنها بحاجة إليّ للعمل عندها في الملجأ كما أنني سأقيم معها

وسوف أكون ابنتها التي لم تنجبها وسترعاني غاية الرعاية ، ففوجئت بأمي تقول لها :

- ومن يخدمنا في هذا البيت الواسع ؟

- استعيني بخادمة فابنتك من حقها أن تفعل في حياتها ما تشاء ويكفي أن والدها منعها من إكمال دراستها وتبرم من الإنفاق عليها ؟ أم أنك تريدين أن تضيعيها في كل شيء ؟ !

فأشار والدي لوالدتي بأن تصمت وقال لخالتي :

- إذا أردت أن تأخذيها معك فلن أمانع ولكن لا تعيديها إلينا مرة أخرى واعلمي أنني لست مسؤولاً عنها في أي شيء منذ الآن ، ولكن حذار أن أسمع عن سمعتها ما يسوؤني ، لقد عاشت في كنفي لا تخرج من البيت ولا تصادق أحداً فإذا خرجت الآن للمجتمع فأنت المسؤولة عنها أمامي ولست مكلفاً بتزويجها فمعي أبناء ذكور في حاجة إلى كل جنيه معي! فوافقت خالتي على كل كلمة قالها وهي تتعجب من تفكير هذا الأب الذي حبسني في بيته ثمانية عشر عاماً ومنعني من مصاحبة أية فتاة خوفاً على سمعته ، لكنها قالت له :

- ابنتك تعرف الله وترعى حقوقه وتحفظ جزءاً كبيراً من

كتابه ثم إن المجتمع فيه أخيار كثيرون وليس عالماً للأشرار فقط ، وأنت تعرف تمام المعرفة أخلاقي وطبيعة حياتي فتأكد أن ابنتك ستكون معي في خير حال . . وأما عن تكاليف زواجها فسأتكفل بها في كل شئ ولن أطلب منك مليماً واحداً .

وهكذا انتقلت لبيت خالتي حاملة معي كل ما يخصني من ملابس وكتب وأشعار وأفكار كنت أدونها أحياناً في مذكراتي بالإضافة إلى شئ آخر حملته داخل أعماقي . . ألا وهو حلم جديد بحياة أكثر دفئاً وحباً وحناناً .

(٣)

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ

عسى نكبات الدهر عنك تزولُ

نزلت في بيت خالتي معززة مكرمة وكانت تعاملني كأنني ابنتها وليس كما كانت أمي تعاملني ، حيث منعتني من فعل أي شئ في أعمال المنزل وقالت لي :

ـ عليك الآن أن تتفرغي لدراستك الجامعية .

ـ كيف أدرس في الجامعة بعد أن منعني والدي ؟

ـ إنه لم يمنعك ولكنه قال بأنه لن يكون مسؤولاً عنك والآن أنت في كنفي وفي عيني فافعلي ما تشائين ودعك من موضوع العمل في الملجأ نهائياً .

ـ بارك الله لي فيك يا خالتي ورعاك من كل سوء . ولكني أخاف أن يتضايق زوجك من إقامتي هنا معك .

ـ لا تخافي شيئاً ، فالبيت بيتي وهو كثير الأسفار لا يقيم معنا إلا نادراً . . والآن أخبريني أية كلية تريدين أن تلتحقي بها إن شاء الله ؟

ـ كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بإذن الله .

ـ وفـقك الله يا ابنتي وسـدد خطاك ، واعلمي أني لن أبخل عليك بأي شئ ، ولكن لي عندك مطلب واحد .

ـ وما هو يا خالتي الحبيبة ؟

ـ إياك وإقامة علاقات من أي نوع مع الشباب فالعفة هي أهم شئ في حياة أية فتاة . . حافظي على طهارتك ونقائك كما عهدتك دائماً ولا تخفي عني شيئاً أبداً فأنا منذ الآن أمك ومعلمتك وصديقتك . . أفهمت يا بنية ؟

ـ أعدك بتنفيذ أوامرك حرفياً يا خالتي وثقي بأنني سأكون دائماً عند حسن ظنك بي .

دخلت الجـامعة والتحقت بالكلية التي أردت ورغم صعوبة الدراسة إلا أنني تعودت منذ صغري على التفوق مهما كانت الظروف ، لكن حياتي في بيت خالتي لم تستمر هنيئة فترة طويلة بل ما لبثت إلا يسيراً حتى تعكر صفوها بسبب سوء أخلاق زوج خالتي معي ، لقد ازداد تواجده وأصبح معي بين حالين : إما متضايقاً مني ومتثاقلاً من إقامتي معهما ، وإما متحرشاً بي مغازلاً لي بعلم خالتي وبدون علمها . أجل بعلمها ؛ فقد كان يغازلني أمامها حتى أثار ضيقها وغيرتها مني وصارت تعاملني بجفاء ظاهر رغم

أني واثقة تمام الثقة من حبها واحترامها لي وانتهزت يوماً فرصة عدم وجود زوجها بالمنزل فاقتربت مني وربتت على ظهري قائلة :

ـ سامحيني يا ابنتي فإن الوضع يستحيل أن يستمر هكذا . . .

ـ سامحيني أنت يا خالتي على ما سببته لك من حرج . . سأترك المنزل حتى لا أثير بينكما المشاكل ، سأرحل إلى أي مكان لا تريني فيه أبداً .

ـ كلا يا ابنتي ، إنني أحبك كأنك ابنتي . . سأؤجر لك غرفة مناسبة فوق بناية قريبة من الجامعة . . وسامحيني على هذا التصرف ، فأنا أعلم أن العيب في زوجي وليس فيك لكني أتألم حين أراه يفعل ذلك معك أنت لأنك بمثابة ابنتي والمفروض أن يعاملك كذلك هو الآخر .

وهكذا انتقلت للسكن في الغرفة التي أجرتها لي خالتي وفرشتها لي ودفعت لي أجرة ستة شهور مقدماً ثم أعطتني مصروفي الشهري وتركتني دامعة العين وهي تقول :

ـ سامحيني يا ابنتي فظروفي أقوى مني لكني أعدك بأنني لن أتخلَ عنك أبداً ما حييت .

وانصرفت وتركتني للوحدة والوحشة والغربة . . .

لم يبق للروض الحزين سوى الأسى

لحنٌ قديم .. دمعةٌ وسؤالُ

في القلب حلم خانني منذ الصبا

أيام وصل ما لهن زوال

قلب أخبئ حزن أيامي به

العين بيت والرموش ظلال

قد جئت في الزمن اللقيط وقد مضى

عهد البراءة ملّني الترحال

فحوائط الأحزان تصفع جبهتي

وبريقُ عمري كله أطلال

تعبتْ من الترحال كل سفائني

فالحب في الزمن الرديء ضلال[1]

باعني أهلي وسلبوني حقي في الرعاية والحماية والحنان

---

(١) من قصيدة ليالي الخريف للأستاذ/ فاروق جويدة .

والمال ولم يفكروا لحظة في تأمين مستقبلي بأي شكل ، أشعر أن عمري ستون سنة رغم أني في العشرين . . . نموت ببطء ولا ندرك أننا نموت ، نموت جوعاً للمسة ، اللمسة إن جاءت من القلب تشفي . . إننا بشر بحاجة ملحة وعميقة إلى أن نُحب ونُحَب ، نعبر عن تلك الحاجة في لمسة يد ، في رنة كلمةَ نحكيها للآخر أو نسمعها منه ، في نظرة عين تنقل الحنان إلى آخر أو تصلنا من آخر ، وتجهر برابطة ، بصلة ، باهتمام . . . يستيقظ المرء في الصباح وهو يحس أنه محبوب وينام في الليل وهو يشعر أنه مرغوب . . من هنا ينبع الكمال والالتزام والإخلاص والفضيلة . . .

وأظلني الليل بشجونه فجلست ألملم نفسي بين كتبي ودفاتري فوقعت في يدي قصيدة وجدت فيها أنيني وأوجاعي فأخذت أرددها وقلبي يتصدع وعيناي تذرفان :

كم قلت في يأس سأرحل علّني
أجد الظلال على رُبى النسيان
حتى يعود الحب يملأ مهجتي
ويشع نوراً في سماء كياني

لكنـــني أدركـــت أن بـــدايتـــي

ونهايتـــي ســـتكون في أوطـــاني

وســـأسأل الأيام عـــلّ مدينـــتي

يوماً ســـتعرف قيـــمة الإنســـان

فمتى شجون الليل تهجر عشنا ؟

ومتى الزهـــور تعـــود للأغصان ؟

ومـــتى أعـود لكـي أراك مدينـــتي

فرحى بغـير اليـــأس والأحـــزان ؟

أتُـــرى ســـترحمنا مدينـــتنا التي

قد صرت أجهـل عندها عنواني ؟

قد أنكرتني في الزحـــام وما درت

أني يمـــزقـــني لظـــى حرمـــاني

إني وليـــدك يا مدينـــتنا فهـــل

صار الجحود طبيـــعة الأوطـــان ؟

هل صار قتل الابن فيك محلَلا

أم صار حكم الأرض للشيطان ؟

إني تجاوزتُ الحديث وإنما

حقي عليك سماحة الغفران

فإذا غضبت فأنت أمي فارحمي

وإذا عتبتِ فذاك من أحزاني ! (١)

مرت الأيام تباعاً متشابهة يملؤني فيها الشعور بالألم والحرمان والحاجة للحب والأنس بالآخرين ، كنت أسمع صوت جيراني وأنا صاعدة أو هابطة يتحدثون أو يتضاحكون فأبكي رغماً عني حنيناً إلى الأنس ببشر أحبهم ويحبونني ، أشتاق إليهم ويشتاقون إليّ ، أحتاج إليهم ويحتاجون إليّ ، وآه حين تحب الحب فلا تجده ، آه من ويلات الفقد وقساوة الحرِمان . . .

وكم مكثت ليال ساهرة أرقب السماء وأدعو العلي القدير أن يشغلني به عمن سواه فهو نعم الأنيس والجليس والحبيب ، نعم المولى ونعم النصير . .

---

(١) من قصيدة مدينتي بلا عنوان للأستاذ / فاروق جويدة .

سبحان من هو أنســي إن خلوتُ به

في جوف ليلي وفي الظلماء والسَحَرِ

أنت الحبيــب وأنــت الحــب يا أملي

من لي سواكَ ومَن أرجوه يا ذُخـري

وقد استجاب الله دعائي ورعاني وآنسني به فكنت أحادثه وأناجيه إذا هجع الخلق وآووا إلى مضاجعهم وأشكو إليه ما أعانيه من ضيق وحزن وبغض للحياة ، وأدعوه في سجودي فأقول : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي إلا أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو أن ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى لا إله إلا أنت .

فسمعت ذات ليلة هاتفاً يقول لي : « من رضي بقضائي ألبسته حلل رضائي » فاستبشرت وعرفت أن الله يطمئن قلبي الواجف فشكرته على فضله ولطفه بي وبدأت أتجه إلى قراءة كتب التصوف والصالحين فعرفت أن الدنيا دار بلاء

وهم وأنكاد وإنما جعلت الآخرة للصابرين وكما قال ابن عطاء الله السكندري في حكمه :

« لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحقُ وصفها وواجبُ نعتها » فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره والمشاق فيها :

تطـلب الراحــة في دار العنا

خاب من يطلب شيئاً لا يكون

فملتمس السلامة في دار المخاوف والمتالف والمعاطب كالمتمرغ على مزاحف الحيّات ومدابّ العقارب ! !

ويكفينا قول الله تعالى الذي يثبت به المؤمنين : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧]

وأدركت أن الخير والشر ، الحياة والموت ، الصحة والمرض ، هي مكونات عالمنا المادي الذي يتألف من وجهين : إيجابي وسلبي ، ولا وجود لوجه دون الآخر كما لا وجود للنور من دون الظلام ، إنما عندما يقابلنا وجه القمر المظلم نشعر بأننا أُفردنا من دون العالم كله بعقاب لا نستحقه ، ولكن الحياة هي الحياة ، وكما كانت خالتي تقول بحكمتها الفطرية : « لا يجب أن يحصل ولكنه حصل ».

(٤)

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق : ٣] .

رغم قربي الشديد من الله إلا أنني بدأت أرى في نفسي ميلاً شديداً لإقامة علاقة عاطفية علّها تعوضني عن فقدي لمشاعر الحنان والانتماء من أسرتي ، وكأنما علم الله ضعفي فجبر كسري فهو سبحانه الرحمن الرحيم ، فقد تعرفت على الأسرة التي كانت تقطن أسفل مني ومع مرور الأيام توطدت علاقتي بابنتهم سميرة التي كانت على خلق رفيع وأدب جم وثقافة عالية فازددت منها تقرباً كما احتضنتني والدتها وعاملتني بمنتهى الحب والرأفة .

وقد صارحت هذه الأسرة الكريمة بظروفي دون خجل فأنا لم أرتكب إثماً يخجلني وحتى لا يتشككوا فيّ إذا رأوني متكتمة خاصة وأنا شابة تقيم وحيدة دون أسرة أو زوج . . صارحتهم بكل شئ إلا ما يخص زوج خالتي حتى لا أسيء إليها فقد أكرمتني كثيراً ، ورغم مصارحتي لهم إلا أنني حاولتُ جهدي ألاّ أذم أبواي حتى لا أرتكب جرماً أياً كان حجمه في حقهما مهما فعلا معي ، لكني قلت لهم إنني على

خلاف في كل شئ مع أسرتي وأن أبي لا يهتم بتعليم البنات فهو مقتنع ـ كريفي ـ بضرورة تزويجهن المبكر ، لذا أخذتني خالتي للعيش معها إلا أن زوجها تأذى من إقامتي الدائمة معهما . . . هذا ما قلته والله على ما أقول شهيد .

ومع مرور الأيام بدأت أشعر باهتمام ولدهم بي وقد كان شاباً متلزماً بحق ، يكبرني بعامين وتخرج مهندساً معمارياً ، وفجأة طلب مني ذات يوم أن يقابلني خارج المنزل بعيداً عن الأسرة ليتكلم معي في موضوع هام ، فرفضت متعللة بأنني لا أقبل على نفسي أن أخرج مع شاب مهما كان السبب . . .

فلم يكرر طلبه لكنه لم يكف عن اهتمامه بي فقد كان يصر على أن أتغذى معهم بعض الأيام ، وأحياناً كنت أجده ينتظرني مع سميرة عند باب الجامعة لتوصيلي إلى المنزل إذا تأخرت في الرجوع بسبب المحاضرات المتأخرة . .

ومكثت أياماً أفكر فيه وفي تصرفاته معي وقلبي يخفق فرحاً لأول مرة في حياتي المكدودة ، كنت في حاجة إلى الحب بكل ذرة في كياني ، إن الحب الحقيقي كان هدفي منذ تركت بيت أهلي الذي لم أجد فيه رائحة الحب ، الحب الذي أبحث عنه هو ذلك الذي يكون تعلُّق روح بروح واشتباك

نفس بنفس دون نظر إلى جمال الجسد أو حُسن مظهر ، فالحب هو الذي يخلق الجمال والحسن وهو الذي يعمي المحب عن عيوب محبوبه :

فلستَ براءٍ عيبً ذي الود كله
ولا بعضَ ما فيه إذا كنت رائيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ
كما أن عين السُخط تبدي المساويا

أجل . . لا يضيرني أن يكون بمحبوبي ألف عيب فكل البشر عيوب ولن أجد على الأرض ملاكاً إلا إذا أردتُ أن أراه كذلك ، ولهذا لم أر في خالد أية عيوب . . فقد أحببته . . وبمعنى أدق أحببت تدينه واهتمامه بي وكفاحه

وذات يوم حين كنت في الكلية فوجئت بسميرة أمامي فأقبلت غليها وأنا مندهشة من حضورها المفاجيء ، وأخذتها إلى كافيتريا الكلية ثم سألتها متوجسة :

ـ هل حدث مكروه لأحد من أفراد الأسرة يا سميرة ؟

ـ كلا يا ناهد ، لكني أردت أن أحدثك بعيداً عن البيت حتى نستطيع الحديث بحرية ، لقد أرسلني خالد للحديث معك . .

ـ خيراً يا سميرة . . .

ـ بدون مقدمات . . . لابد أنك لاحظت اهتمام خالد بك ومحاولته الدائمة للتقرب إليك . . . ولأن خير الكلام ما قل ودل فبصراحة ووضوح : خالد يريد أن يتقدم لخطبتك من والديك أو خالتك كما تختارين ـ وأمي وأبي يؤيدانه بشدة في ذلك فقد أحباك حباً عظيماً . فما قولك يا ست البنات ؟

ـ لقد فاجأتني يا سميرة . . لقد لاحظت فعلاً تقربه مني ولكني لم أتصور أن يتقدم لخطبتي بهذه السرعة . ثم إننا لم نتعرف على طباع بعضنا البعض . . ولن أخفي عليك أنني أُكنُّ لخالد كل احترام وتقدير وإعزاز ولكني أخشى عواقب التسرع في مثل هذه الأمور التي يُبنى عليها المستقبل بأسره .

ـ لن أطلب منك رداً الآن ، فكري في الموضوع بروية فهذا أمر مصيري كما تقولين ولكن استخيري الله قبل كل شئ . . أعلم أنك عانيت كثيراً في حياتك ولكن عسى أن يعوضك خالد عن كلّ ذلك فهو حنون طيب القلب وسيسعى بكل جهده لتوفير حياة معقولة لكما . . .

ـ أتعرفين يا سميرة . . . سأحدثك بما في نفسي الآن

فأنت صديقتي الوحيدة الأثيرة . . . لقد عرفت معكم جميعاً طعم الحياة الجميل ، إن مثلي معكم كقول الشاعر :

أتيتُ إليكم

وما كنت أعرف معنى الغناء

وغنيت فيكم وأصبحت منكم

وحلقت بالحلم فوق السماء !!

وقد كانت سعادتي معكم شعوراً غريباً على نفسي فقد ألفْتُ الحزن حتى صار قريناً لي وصاحبتني الغربة حتى خَشيت أن ألقَ وجه الله فلا يشعر بموتي أحد . .

إني امرؤ عشتُ زما ... ني حائراً مُعذباً

مسافراً لا قوم لي ... مبتعداً مغتربا

أمشي بمصباحي وحيد ... أ في الرياح متعبا

أمشي به وزيته ... كاد به أن ينضبا

ـ كفاك حزناً يا ناهد . . إنني آمل أن تفرحي ما بقى لك من عمر مع خالد إن شاء الله . . فمتى ستردين علينا ؟

ـ أملهيني حتى تأتيني خالتي فأخبرها . . لكني مبدئياً أرتاح لخالد ولا أرى فيه عيباً يمنعني من الموافقة على الارتباط به .

ـ وهذا يكفينا الآن . . وسأذهب من فوري لأبشر خالد بموافقتك المبدئية .

ـ لا يا سميرة . . لا تتعجلي حتى أجلس مع خالد بضع مرات فيحدثني عن نفسه وأحدثه عن نفسي فربما لا يجدني كما كان يتصور فيتراجع عن طلبه . .

ـ لا أظن يا ناهد أن يتراجع خالد عن طلبه يدك فقد أحبك حباً عظيماً ، ولكن لكِ هذا حتى تستريحي تماماً من ناحيته .

وهكذا تركتني سميرة بعد هذا النقاش الطويل لألم شعث نفسي وأفكر في عرض خالد ، لا أنكر أنني مشدودة إليه ومعجبة به لكن هذا القرار لم يكن سهلاً ، ولا أنكر أنني أتمنى اليوم قبل الغد أن أُكَوِّنَ أسرة جديدة مع شخص طيب القلب يخشى الله فيّ أنجب منه أبناء أهبهم كل حياتي لكن التمهل في كل أمور الحياة أمر لابد منه ففي العجلة الندامة ـ كما يقولون ـ وقد علمتني الصعوبات التي واجهتها ألاّ أفرح

بالشيء المبهر في أوله حتى يتمحص جوهره . . ولذا قررت أن أعطي نفسي فرصة التعرف إلى خالد عن قرب بشرط أن يكون ذلك في منزلي بحضور خالتي . . .

وهذا ما حدث . . . أعلمت خالتي بالموضوع فباركت طريقة تفكيري وفرح خالد بطلبي في أن نتعرف على بعضنا البعض ، فكانت خالتي تأتيني ويصعد خالد مع أمه إلى سطح البناية حيث أقيم في غرفة متواضعة فقد حبذت أن يصعد إليّ بدلاً من أن أنزل إلى شقتهم بعد الوضع الجديد صوناً لكرامتي وحتى يرى خالد وأمه معيشتي على طبيعتها ، وبعد لقاءات عدة صعدوا جيمعاً إليّ وخالتي عندي قرأنا الفاتحة وتمت الخطبة بعد ذلك بأسبوع بعد أن ذهبت لوالديّ وطلبت منهما الحضور فرفضا .

وقالا لي : لن نشارك في زواجك بأي شكل لقد تكفلت بك خالتك ! !

ومرت شهور تم فيها تجهيز كل شيء . . الشقة الصغيرة بنفس البناية التي استأجرها حموي لخالد وأصر على أن يدفع إيجارها طوال حياته رغم أنه رجل مستور الحال ـ كما يقولون ـ لكنه كان يملك أرضاً في قريته تأتيه بريع معقول فأوقفه على

خالد وسميرة بل كان يعطيني أحياناً بعض المال لأستعين به على شراء لوازمي ، أما من جانب خالتي فقد بذلت لي كل ما في وسعها حتى باعت منزلاً تملكه من أجل توفير كل متطلبات زواجي . .

واعتبرتني فعلاً ابنتها كما وعدتني سابقاً . . . وتم زواجي دون حضور والديّ أيضاً أو إخوتي ، رفضوا حضور زفافي لأن زواجي لا يعنيهم كما أن مستوى خالد وأسرته لا يليق بمستواهم الرفيع ! !

وأنزل الله على قلبي السكينة والرضا فلم أنزعج بسببهم بل اعتبرت زواجي من خالد وحبه وحب أهله وخالتي لي تعويضاً كبيراً من الله فشكرته سبحانه على نعمه وشعرت أني أحبه أكثر من أي شيء فهو جل شأنه لم ينساني بل أنزل لطفه عليّ حتى عمتني نعمه ووسعتني رحمته ، فيارب :

أبى القلب إلا أنت في كل حالة

حبيباً ، ولو دارت عليه يد الكرْبِ

فلا تبتليه بالبُعاد فإنما

تلذذ أنفاس المحبين بالقربِ

وحقك لو أفنيت قلبي صبابة

لكنت على هذا حبيباً إلى قلبي

وهكذا بدأت أستنشق نسمات رقيقة في حياتي بين والدين كريمين وزوج حبيب محب عطوف متفاهم وأخت صديقة كريمة رحيمة ، لكنّ أمد السعادة قصير . . فقد أبت عليّ الدنيا أن أسعد كثيراً بين الراحة والاطمئنان فرمتني بسهم مسموم من كنانتها !!

* * *

(٥)

يا موتُ خذ ما أبقت الأ　　　يـام والسـاعات منـي
بيـــني وبينـك خطـوة　　　إن تخطّها فرّجت عني

مرت علينا سنة في زواجنا السعيد ، كنت كلما مر يوم أشكر الله تعالى على نعمته التي لا تُقدَّر على وأتمنى منه سبحانه أن يتمّها عليّ فهو الرحمن الرحيم يعلم كم تعذبت وتألمت وبكيت وعانيت . . ورزقني الله بولد جميل يشبه أباه إلى حد كبير ، وصار زوجي لا يهتم بأحد في الدنيا إلا بي وبولده كما كان شديد الاهتمام بوالديه ، أما سميرة فقد تزوجت وانتقلت إلى الإسكندرية . .

كان خالد يعمل بمنتهى الجد ويفنى يومه كله فى العمل الشاق فلا يأتي إلا في الثامنة مساء لأستقبله بكل الحب والشوق فنحيا معاً ساعات مليئة بالدفء والأمان إلى أن يأتي يوم آخر فيتركني ذاهباً إلى عمله وأترك ولدنا عند جدته التي عوضني الله بحنانها عن حنان أمي ثم أذهب لعملي حيث عملت مترجمة في مكتب ترجمة لأساعد خالد في أعباء المعيشة ونحيا في مستوى معقول .

وهكذا سارت بنا الأيام ترخي لنا عنان المودة وحبال

الهناء لكنّ الدنيا كما قال أحد البلغاء : «خيرها يسير وعيشها قصير وإقبالها خديعة وإدبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية» .

وقد قال الله عنها : « ما خلقت خَلقاً أهون عليّ منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي ولا يدوم لك أحد» .

مرض زوجي فجأة بداء في كبده وأخذنا نجول به على الأطباء لكنه أخذ يضعف رويداً رويداً حتى عجز عن الذهاب للعمل ولازم الفراش مع كثرة ما يتناوله من عقاقير وعلاجات ، وزارتني خالتي ذات يوم فأخبرتني أن هناك طبيباً ماهراً في تخصص أمراض الكبد لكنه يعمل في مستشفى والدي فقلت لها :

- أنا يا خالتي مهما ضاقت بي السبل لن أذهب لوالدي أبداً ، أتُراكِ نسيتي ما فعلوه معي وأنهم رفضوا أن يحضروا زفافي ؟

- كلا لم أنسَ يا ناهد ولكنّ حالة زوجك حرجة فعليك أن تضحي من أجله بأي شيء مهما كان صعباً عليك .

- سأفكر في الأمر يا خالتي ويفعل الله ما فيه الخير .

- أسرعي يا ابنتي فلا وقت أمامك للتفكير وكل يوم يمر ليس في مصلحة زوجك .

- سأفعل بإذن الله .

وتحدثت مع خالد في الأمر لكنه اعترض بشدة وقال إن كرامته تأبى عليه ذلك وكان هذا نفس رد فعل أبويه ، لكني كنت قد فقدت الأمل في علاجه على نفقاتنا الخاصة بالإضافة إلى أنني كنت أتوق إلى الاطمئنان عليه فأعرف ما هي حقيقة مرضه خاصة وقد احتار الأطباء في ذلك وأقلقنا بعضهم فقالوا : إنهم يشكون أنه المرض الخبيث قد استوطن الكبد !!

وكانت حالتي النفسية من فرط قلقي على زوجي قد باتت وشيكة على الانهيار فحاولت قدْر جهدي أن أقنع زوجي ووالديه بالذهاب للمستشفى الذي يملكه والدي لإجراء الفحوصات اللازمة لخالد وعلاجه عند ذلك الطبيب وألححت عليهم إلحاحاً شديداً حتى وافقوا في النهاية .

وبالفعل ذهبت به إلى مستشفى والدي واضطررت إلى إذلال نفسي لوالدي بشدة وبأسلوب أبكاني بعدها وشعرت بمدى قسوة والدي عليّ وهو يقول لي :

ـ كيف أقبل أن أعالج لك الرجل الذي تزوجتيه رغماً عنا ولا يليق بمستوانا الاجتماعي ؟

فلتذهبي لغيري يخدمك فيه . . إنك ابنة عاقة لا أرضى أن أرضخ لأي طلب من طلباتها . .

لكني أدخلته بفضل الله بعد توسلات كثيرة وبعد أن دفع والد خالد مبلغاً كبيراً من المال . .

ومرت الأيام وأنا بجوار خالد لا أهدأ ولا أنام . . أشعر أنه قطعة مني بل روحي التي بين جنبيّ ، أسقيه من حبي وحناني حتى أرى ابتسامته تنبع وسط دوامة آلامه فأشعر أنني ذات قيمة في هذه الحياة ويهون عليّ كل ما فعلته معي الأيام من قسوة وحرمان وجفاء فأكف عن معاتبتها وحسابها وأدعو الله أن يعافيه لي وأسامح كل من آذوني . . أسامح الدنيا بأسرها . . إنه حبيب قلبي ماضيّ وحاضري زوجي وأبو ولدي يهتم لهميّ ويفرح لفرحي ، غمرني بحبه وحنانه وعطفه وعطائه آثرني بكل ما يملكه اشتراني بحياته آواني في أسرته الكريمة فكيف لا أبذل له روحي ودمي وعمري ؟!

شخّص الأطباء مرضه على أنه المرض الخبيث فكدت أنهار . . هاهو حلم حياتي يضيع مني ويتسرب من بين يداي

. . خاصة وهو يحتاج لجراحة كبيرة لكنّ أموالنا نفدت فذهبت لخالتي أستنجد بها فقالت لي :

ـ لا تحزني يا ابنتي فإن المرض يزول والمصاب يحول والدَين يُقضى والمحبوس يُفك والغائب يقدم والعاصي يتوب والفقير يغتني . . .

أما ترين السحاب الأسود كيف ينقشع ، والليل البهيم كيف ينجلي ، والريح الصرصر كيف تسكن ، والعاصفة كيف تهدأ ؟!

إذن فشدائدك إلى رخاء وعيشك إلى هناء ومستقبلك إلى نعماء :

عسى فرج يكون عسى نعلل نفسنا بعسى

فلا تقنط وإن لاقيـ ـت هماً يقبض النفسا

فأقرب ما يكون المر ء من فرج إذا يئسا

هاك يا ابنتي ألفي جنيه استعيني بهما حتى أبيع قطعة أرض ملكي وآتيك بثمنها كله .

ـ لا أعرف ماذا كنت سأفعل بدونك يا خالتي الغالية . .

رجعت إلى المستشفى فوجدت زوجي في حالة يرثى لها

فالألم يعصف به وقد منعوا أبويه من الدخول عليه لأنه في حالة حرجة فدفعت ما معي بسرعة في خزانة المستشفى حتى يدخلوه غرفة العمليات فأبت إدارة المستشفى بفضل والدي إلا أن أدفع نصف المبلغ الذي ستتكلفه الجراحة وهو عشرة آلاف جنيه . . .

سارعت لوالدي أستعطفه فأبى أن يقابلني فذهبت لزوجي وألححت عليهم حتى أدخلوني عليه فإذا به شاحب الوجه متفصد الجبين عرقاً غائر العينين ألماً وضعفاً قد ذهبت نفسه من الأنين مذاهباً فأخذت أضمه وأقبله وهو في حجري كالطفل الوليد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ينظر إلي بعينين زائغتين فتمالك نفسه بعد سويعة فقال لي بصوت واهن :

ـ لقد أتعبتك معي وكان زواجك مني من سوء طالعك ، فأجبته ونفسي تتقطع عليه حسرات :

ـ لا تقل هذا يا حبيب العمر فلو فديتك بنفسي آلاف المرات ما وفيت حقك عليّ فأنت كل شيء بالنسبة إليّ فلا تشغل بالك بشيء .

وبعد ساعات أسلم الروح وهو بين يدي . . . وحين أتذكر تلك اللحظات العصيبة أتعجب من نفسي كيف

احتملت الموقف وصمدت . . فرغم أننا نعلم أن الموت حق علينا إلا أننا لا نرضاه لأحبائنا شفقة عليهم وحباً لهم وجزعاً لفراقهم ولا نرضاه لأنفسنا عشقاً للحياة ورغبة في المزيد من التمتع بها مهما أذاقتنا من ويلات ، وهكذا تمضي الحياة حتى يبغتها الموت!!

حاولت جهدي أن أتماسك أمام أسرته ، ووالديه المكلومين وأخته التي كانت تعتبره مثلها الأعلى وسندها في الحياة ، لكنّ عذابي كان عذابين . . عذابي لفراقه و تيتم ولدي من بعده ، وعذابي لشعوري بأن أبي كان هو السبب فيما حدث لزوجي . . صحيح أن الآجال مقدرة لكنه كان سبباً مباشراً بقسوته في عدم إجرائه الجراحة والتي كان من الممكن أن يبرأ بعدها ويسلم لي وأنا ليس لي في الدنيا سواه . . .

لكنه بعد أن ذهب فقد بت فى صحراء جرداء من جديد . . .

ولكنها الأقدارُ تجري بحكمها

علينا وأمر الغيب سر محجب

وتذكرت حديثه ﷺ : « من قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه عوضته منه الجنة » وقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم

بنقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

وقول الشاعر الحكيم :

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن تُردَ الودائعُ

فتدبرت أمري وعلمت أنني لا أملك إلا الصبر ثم الرضا بقضاء الله وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون .

وحاولت جهدي أن أحيا من جديد فأعلمت أهل خالد رحمه الله أنني سأرحل إلى مكان آخر فكل ما في البيت يذكرني بخالد ويعذبني .

فقالوا لي : لا تحرمينا من قربك فأنت وحفيدنا آخر ما تبقى من خالد لنا ، فآثرت راحتهم على راحتي وبقيت معهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

(٦)

مضت بي الأيام ضنكى كأنها تعذبني على جُرم اقترفته ، فويلي ثم ويلي منك يا سني عمري . . ومرت الأيام بأهلي كما يشتهون ـ فقد كانت خالتي تأتيني بأخبارهم ـ تزوج أخواي الأكبران أفخم زيجات وسكنا في أحسن الشقق وتملكا أحسن السيارات وشغلا أعلى المناصب ، أما أبي فقد تزوج بأخرى تكاد تقترب من عمري وأصبحت علاقته بأمي في أسوأ حال لكن أموالها عوضتها عن فقده كما أنه ينفق عليها بسخاء ليعالجها من أسقامها ، وقالت لي خالتي إن أمي تشعر أن أجلها قد اقترب لكنها لا تزال على موقفها مني لزواجي من خالد رغم جفاء أبنائها معها ، وأما عن إخوتي فإنهم لا يذكرونني البتة وكأنه ليس لديهم أخت شقيقة . . .

وقد تسأل : لماذا لم أحاول الاقتراب من أسرتي أبداً ؟ فأجيبك : بأن كثرة القسوة تعلم الجفا وقد قسوا عليّ كثيراً هذا قبل مرض زوجي أما ما فعلوه مع زوجي فهذا ما لم يمكنني نسيانه أبداً فكلما تعذبت بفقده ووحدتي من بعده ويُتم ولدي تذكرت أنهم كانوا السبب فيما جرى له فربما لو أجرى الجراحة كان قد سلم لي بعدها وعاش معي يؤنسني

ويذهب عني الوحشة والوحدة اللتين أعاني منهما ، هذا بالإضافة لنظرة الناس لي فماذا يقول الناس عن أرملة لا يسأل عنها أهلها سوى أنها ولابد قد ارتكبت إثماً أو سوءاً وما أبشع ظنون الناس وأكثر شائعاتهم !! وفكرت في أفعال أهلي معي وتخليهم عني في سن حرجة ألم يخافوا عليّ من الإنحراف والضياع ، ألم يخشوا على شرفي وشرفهم ، لكن قسوة قلوبهم وتفكيرهم المادي في المال وحده وفي أنفسهم فقط نزعت منهم الرحمة والنخوة . . ذلك والدي طبيب كبير ومليونير عظيم لكنه لا يعرف المعنى الحقيقي للشرف ولا للرحمة ما سمع الحكيم وهو يقول : « أيها الوالد ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلاّ تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين» .

ما أشقاني بأهلي ونفسي وحياتي ، حتى علاقتي بربي لم تعد كما كانت ، اللهم تلقفني بعنايتك ورعايتك يا أرحم الراحمين . . .

وذات صباح بينما كنت أنظف شقتي الصغيرة إذ دق جرس الباب فسارعت إلى فتحه ظانة أنها خالتي أو أهل زوجي الراحل رحمه الله فإذا بي أمام أخي الأصغر وجهاً لوجه . .

ورغم ما بداخلي تجاههم إلا أنني فرحت به فرحاً غمرني فاحتضنته وأدخلته ورحبت به ترحيباً شديداً رغم بروده الشديد معي وأخذ يدور ببصره في أرجاء منزلي وفي عينيه أمارات الازدراء لسكني المتواضع ثم جلس على الأريكة واضعاً ساقه على ساق وقال لي :

ـ أهنا تعيشين ؟ ما أقذر هذا الشارع وأحقر هذا المكان ! ! على العموم لا دخل لي بحياتك فمنذ زمن بعيد وأنت شاذة عنا في كل شيء . . إن والدي يريدك وقد أمرني ألاّ أرجع بدونك فهيا بنا قبل أن يخرب أحد شياطين حارتكم شيئاً في سيارتي الجديدة ! !

وهكذا أبقيت ولدي مع جدته وذهبت معه إلى أبي الذي قابلني في غرفة الضيوف كأني غريبة عنهم . . وبدون مقدمات قال لي :

ـ ستجلبين لنا العار بحياتك مستقلة في منزلك .

ـ وماذا أفعل ؟ أنتم من حكمتم عليّ بهذا ، حكمتم عليّ بالغربة بينكم . . وحكمتم عليّ بالوحدة بعيداً عنكم ، لقد اعتبرتموني بلاء مع أني لا أعلم ديناً كرّم المرأة وجعل لها مكانة متميزة في المجتمع إلا ديننا الإسلامي ، لقد جعلتموني

كما كانت المرأة في العصور والأديان السابقة وفي شتى الحضارات شرقيها وغربيها حيث لم يكن لها حق معترف به مادياً كان أو معنوياً بل قاربتم أن تجعلوني ميراثاً يورث كما كان العرب قديماً يفعلون لا أملك لنفسي شيئاً وكأنني من سقط المتاع . . لقد جعل الإسلام المرأة صنو الرجل ومثيله فقال ﷺ : « النساء شقائق الرجال» بل وجَعلها ترث بعد أن كانت تحرم من الميراث وخصها بسورة كاملة في كتابه وسماها سورة« النساء» ويالها من كرامة !!

لقد جعلها النواة الأولى للمجتمع المسلم ، تخرج أجيالاً من الصحابة والتابعين والصالحين والعلماء المصلحين والقادة والمفكرين والخلفاء والسلاطين . . . أجيالاً قوية العقيدة قوية الجَنان تحمل راية هذا الدين ترفعها عالية في مشارق الأرض ومغاربها . . . فأسكتني أبي بإشارة من يده وقال :

ما طلبناك اليوم لتعطينا درساً في الأخلاق ، بل لنخبرك أننا عزمنا على تزويجك من رجل محترم يعمل معي في بعض الأعمال التجارية والاستيراد والتصدير ، ومستقبله مضمون مائة بالمائة .

ـ هل نويتم على زيجة من زيجات البيع ؟!

ـ ما هذا المصطلح المقزز ؟ دائماً تفكيرك شاذ وغريب ، لقد اخترت لك زوجاً صالحاً بكل المقاييس للحاضر والمستقبل يحميك ويصونك من القيل والقال . . استمعي لنصحي ولا تفكري بطريقتك السلبية الغريبة كعادتك .

ـ لن أتزوج إلا إذا أعجبني شخص معين وملك عليّ جوارحي ووجدته صالحاً يرضي الله بأفعاله وأقواله ؛ بحاله ومقاله يشعرني بالأمان . . وكفاني ما لاقيت من عذاب إلى الآن بسببكم ، لقد تركت الأسرة التي لم أشعر معها يوماً بالحنان إلا أنني كنت أشعر بأني في حمى أبوين وإخوة لكنكم ألقيتم بي خارجكم وكأني وبال عليكم دون جريرة ارتكبتها أو ذنب اقترفته .

فقال أخي الأكبر :

ـ كنا نعاملك معاملة حسنة لكنك آثرت أن تكملي تعليمك فتركناك وشأنك . .

ـ ولماذا تكملون أنتم تعليمكم وأنا لا أكمله ؟ ما هو النقص الذي فيّ حتى أحرم من أبسط حقوقي كأخت لكم ؟

فرد عليّ بجهله المعتاد :

ـ كل الدول المتقدمة تميز الذكر على الأنثى فهو الأقدر على تحمل تبعات الحياة .

ـ بل تقصد أن الأرقام الصريحة تحمل شهادة قوية على الفكر المتحجر والمتحيز بإجحاف ضد الإناث في بعض الدول والثقافات ، إذ تبين إحصاءات منظمة الصحة العالمية أن الإناث في معظم البلدان النامية يقاسين من سوء التغذية بنسب أعلى من الذكور كما أنهن يتلقين الخدمات الصحية بنسب أقل من الذكور . . .

مازال تفكيرك متحجراً جامداً ظالماً . . أبهذا الأسلوب تعامل زوجتك ابنة السفير التي فعلت كل ما بوسعك لتنال رضاها وترضى عن الزواج منك ؟

ـ لا شأن لك بي ، ثم إن مما يثبت صحة كلامي أن معظم الآباء الآن اتجهوا للوسائل التي تستخدم لكشف نوع الأجنة ففي الهند مثلاً أصبح الإجهاض يمارس على نطاق واسع إذا كان الجنين أنثى .

ـ إن وأد الإناث في الهند وراؤه أسباب اقتصادية واجتماعية ودينية ؛ ففي ظل غياب نظام تأمين اجتماعي ذي قيمة فإن الذكور هم التأمين الحقيقي في حالة تقدم سن

الوالدين وعجزهم عن العمل في حين أن الإناث يُعتبرن في نظر أسرهن نوعاً من الاستنزاف الاقتصادي فهن غير قادرات على الحصول على المال . . . أما هنا وفي معظم الدول الآن فالأنثى تتعلم وتعمل كالذكر تماماً إلا إذا كفاها والدها أو زوجها مؤونة الإنفاق ، فالآية الكريمة تقول : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] ، فمن لوازم القوامة النفقة على الزوجة ، وليس مجرد تفضيل للذكر لا غاية من ورائه . . .

إن القوامة تحتاج إلى فضل مجهود وحركة وكدح من ناحية الرجل ليأتي بالأموال يقابلها فضل من ناحية أخرى وهو أن المرأة لها مهمة لا يقدر عليها الرجل فهي مفضلة عليه فيها . . مهمة خدمة الزوج وتربية النشيء ، فالله لم يجعل المرأة قوامة لكي تفرغ وقتها لذلك العمل الشاق الآخر الذي خلقت من أجله .

إن المرأة تتعامل مع أكمل الأجناس على الإطلاق . . مع الإنسان . . فهي تربي سيد الوجود ، أما الرجل فيتعامل مع الجماد والتراب والنبات والحجر والحيوان . . إن الذكر في شرقنا نشأ على حظ غير قليل من الأنانية وحب الأخذ

والتملك . . لكنّ الشريعة الإسلامية ساوت بين الرجل والمرأة في كافة الحقوق والواجبات فكلما أخذ الرجل حقاً أعطى واجباً وبالعكس .

ملّ والدي حديثي فقال بحدة :

ـ لقد قلت لك ما عندي فلا تكثري من التفلسف والسفسطة لقد تزوجت في المرة السابقة زواجاً لا يليق بمركزنا في العائلة وتركناك وشأنك ، أما هذه المرة فسيتم الأمر كما نريد نحن لا كما تريدين أنت . . .

واعلمي أن النقاش في هذا الموضوع قد انتهى عند هذا الحد ولن أقبل شفاعة من خالتك أو غيرها في هذا الشأن . . فليكن ذلك في معلومك .

سكتُ ولملمتُ نفسي وانصرفت وأنا أشعر أن طامة كبرى قد وقعت على رأسي . . لقد جربت الزواج عن حب وكنت أحب زوجي الراحل حباً عنيفاً فكيف أتزوج الآن زواجاً مادياً نفعياً كهذا الذي يريدونه لي ، لقد عزموا على التنكيل بي مرة أخرى دون جرم أو ذنب ارتكبته . . حسبي الله ونعم الوكيل . . أجل . . حسبي الله ونعم الوكيل .

رويت لخالتي ما حدث فهدأت من روعي وذهبت إليهم

تحاول إثناءهم عما عزموا ففشلت فشلاً ذريعاً وكأن قلوبهم قُدت من حجر أصم . . فرجعت إليّ وقالت لي :

ـ سلمي أمرك لله يا ابنتي . . ربما يكون زوجاً صالحاً ، لقد سألت عنه وعرفت أنه رجل أعمال ناجح أمامه مستقبل مرموق . . وكفاك وحدة وتمزقاً فلعل الله أن يجمع به شملك ويرزقك منه بذرية صالحة تغنيك عن الدنيا وما فيها .

ـ سلمت أمري لله يا خالتي . . حسبي الله ونعم الوكيل .

أنت حسبي وفيك للقلب حسبُ

وبحسبي إن صح لي فيك حسبُ

جهز الخطيب الجديد شقة فاخرة وأهداني شبكة قيمة ، وبالطبع سوّد والدي وجهي فلم يدفع لي مليماً حتى فستان الزفاف جاءت به خالتي بارك الله لي فيها ، وفي النهاية بعد شهرين فقط تم الزفاف في شقة تطل على النيل بأرقى أحياء القاهرة ، لكن الأيام أبدت لي بعد الزواج ما كنتُ به جاهلة وما لم يكن يخطر لى على بال لكني أظن أنه لن يهم أسرتي في قليل أو كثير ! !

* * *

(٧)

وقعت عليّ كوراث عدة بزواجي من كمال ، ذلك الذي قالوا عنه إنه محترم وله مستقبل . . لقد اتضح أنه أكبر محترم . . ولكن من محترمي شارع الهرم والشقق المفروشة والسهرات الخاصة والليالي الحمراء . . محترم الزجاجات والكؤوس وما شابهها وخالطها من مخدرات وحشيش في جلسات المزاج بل اتضح لي باعترافه أنه يستورده من الهند بأصنافه البانج والساوي والجانجا ومن إسرائيل يستورد الشيشا ومن جنوب الاتحاد السوفيتي يستورد الأناشكا ، ثم يعيد خلطه وتركيبه في مصر ويبيعه بأعلى الأسعار ، كل ذلك الاستيراد يتم بتخفٍ في عبوات مواد غذائية . .

لكنه لم يطلعني على أكثر من ذلك ولم يكن بيدي أي دليل مادي عليه لأبلغ عنه لذا طلبت منه الطلاق فرفض بإصرار وقال إنه يحبني وسيفعل المستحيل من أجل إسعادي لكنه لن يستطيع التخلي عن تجارة المخدرات التي تُدر عليه أموالاً طائلة . .

وأحضر لي في البيت نرجيلة (جوزة) ليستمتع بالحشيش في سهرته بالبيت حين يمن عليّ بسهرة معي فلك

أن تتخيل بشاعة الجو الذي كنت أحيا فيه ، واضطررت بسبب ذلك لإرسال ولدي الوحيد من خالد لجديه ليقيم معهما متعللة بأن زوجي يعامله معاملة سيئة ، حتى لا ينشأ في جو موبوء كالذي أحيا به وكنت أذهب إليه كل يوم تقريباً لأرعاه . .

وتذرعت بالصبر لأني أعلم أن مدخن الحشيش ينتحر ببطء لأنه وهو يأخذ النفس العميق الطويل يهدف إلى الاحتفاظ بالدخان أطول مدة ممكنة حتى إنه لا يرى أي دخان يخرج مع الزفير ! ! وهي عملية انتحار بطيئة . . كما أن الاستمرارية في تدخين الحشيش لعدة سنوات يمكن أن تنتج عنها الإصابة بسرطان الرئة . . ففوضت أمري لله . كما أن هناك كوارث أخرى . . خيانات وكذب مستمر . . خيانات تكتشف وخيانات لا تكتشف لأنها بعيدة عن السكن الخاص بنا فلما واجهته قال لي :

ـ أنا رجل . . أملك حق التصرف كيفما أشاء . . ثم إنك تمنعينني حقي فيك باستمرار . . فماذا افعل ؟

ـ منعت نفسي عنك لأني لا أطيق رائحة الحشيش الذي تدخنه كل ليلة . .

فهل هذا مبرر لك لكي ترتكب جريمة الزنا باستمرار ؟ ألا تخشى الله وتعرف أنه سيحاسبك على كل أفعالك ؟

ـ ربك غفور رحيم . .

ـ ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ .

ـ لست في مسجد أنا ولست موكلة بهدايتي . . لقد مللت العيش معك ولو لا الذي في أحشائك مني لطلقتك !

ـ طلقني حتى لا ينشأ في بيئتك الملوثة . .

فلوى ذراعي بشدة وقال لي : لو تحدثت معي بهذه الطريقة مرة أخرى سأوسعك ضرباً . .

ثم إن علاقاتي المتعددة بالنساء أفضل لك مما لو جئتُ لك بضرة تشاركك منزلك . . ولو أحببت لفعلتها وجئت لك بمن هي أجمل منك وأعقل . . لقد وضعت كل أموالي تحت مشيئتك فلم يعجبك . . فالتي سوف آتي بها ستمسح لي حذائي لو أعطيتها نصف ما أعطيتك . . فكري في الأمر وسأفعل ما ترتاحين له . . إلا الطلاق ! !

كنت كالغريقة التي لا تجد لها منقذاً وأخذت أبكي أياماً متتالية وهو لا يعبأ بي ، لا أدري كيف أتصرف . . هو

يبحث عن المتعة في أي شيء وفي كل مكان . . ولم أستسلم بل نصحته كثيراً قلت له :

ـ ألم تسمع قوله تعالى : ((ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً)) ؟ ألم تعلم بقوله ﷺ : « **من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه** » وقوله ﷺ : « **يا معشر المسلمين : اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة فأما التي في الدنيا فذهاب بهاء الوجه وقصر العمر ودوام الفقر ، وأما التي في الآخرة فسخط الله تبارك وتعالى وسوء الحساب والعذاب بالنار** »فكان يقول لي بتهكم :

ـ دعك من الآيات والأحاديث . . إنني في عز شبابي وفتوتي ، ومن حقي أن أستمتع بالحياة . . إن الزواج هو أسوأ نظام عرفته البشرية . . واحدة فقط لا تكفي . . قلت لك دعيني أتزوج . . وهنا في هذه الشقة . .

ـ لا بل دعني لحال سبيلي وتزوج غيرى كما يحلو لك . .

ـ لقد دفعت في زواجي منك الكثير ولم يرضَ والدك أن يدفع لك شيئاً فكيف تطلبين مني الآن أن أتركك ؟ الموت أقرب إليك من ذلك .

ـ هداك الله . .

ـ وهل أنا مجنون حتى يهديني الله . . إنني أعقل منك ومن أبيك الذي رمى بلاءه عليَّ . .

عدت أسمع كلمة البلاء من جديد وصار ذلك الأسلوب المهين ديدنه معي باستمرار لكني أخذت أردد قوله تعالى : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾

* * *

مرت بي الأيام تباعاً لا أعرف لها طعماً إلا المرارة حتى أنجبت توأماً ولداً وبنتاً ملآ عليّ حياتي فلم يعد يشغلني عنهما سوى خوفي عليهما من البيئة التي سيشبان فيها . .

ومرت السنوات بي وبهما حتى دخلا المدرسة ، لكن زوجي لم يتغير فيه شيء ، وماتت والدة خالد فأحضرت ولدي البكر ليحيا مع إخوته وقاتلت قتالاً شديداً أمتهنت فيه كرامتي لأبعد حد حتى أُبعد الحشيش عن بيتي لكني فشلت لعند زوجي الشديد وإدمانه للمخدر حتى أصبح يدخن ليلاً ونهاراً كأنه حوت لا يشبع ولا يؤثر فيه شيء ، وأحسست أنني كنت غبية حين تصورت أن المخدر يمكن أن يقضي عليه . . ولم يكن أمامي إلا الاستمرار في الجهاد حتى أبعد

أولادي عنه أثناء جلسة كيفه مع أصدقائه في غرفة الجلوس في ليال كثيرة . . وذهبت لوالدي وشكوت له ما أنا فيه فلم يأبه بي وقال لي :

ـ إنه نصيبك ولا أستطيع أن أفعل لك شيئاً ، ثم إن بيني وبينه مصالح لا أملك أن أنهيها . . لقد أسست شركة معه منذ سنتين والشركة ناجحة وتدر عليّ أموالاً طائلة فصرفي أمرك بعيداً عني ولا تكوني وبالاً عليّ . . إن زواجك منه هو الحسنة الوحيدة لك عندي . .

ـ أتبيع سعادتي وأولادي من أجل المال . . لم أر في الحياة من هي أشقى بأهلها مني . . افعل لي شيئاً واحداً أدعو لك من أجله . . طلقني منه أو افصل بيني وبينه بدون طلاق وسأعمل وأنفق على أبنائي من مال حلال حتى يشبوا صالحين . .

ـ لقد زدت عن الحد وأنا لست متفرغاً لك فانصرفي واكفيني شر همومك ، لقد زوجتك لأرتاح من همك لا لتعودى إليّ بهمومك . .

ثم إن زوجك رجل ناجح يعرف كيف يأتي بالملايين فاحمدي الله على النعمة التي أنت فيها قبل أن تزول من

وجهك . . هيا . . هيا . . اذهبي ولا تريني وجهك بعد الآن . .

تركته ورجعت للبيت باكية من شدة الألم وقوة الصدمة أهذا هو الأب الذي يحسدني من لا يعرفني عليه . . حقاً إنني لغبية إذ تصورت أنني من الممكن أن أستنجد بأحد من أهلي . .

وبعدها بيومين فوجئت بولدي الكبير مخدراً لا يستطيع أن يفارق فراشه ويهذي بطريقة عجيبة فذهبت به بعد أن أفاق قليلاً إلى الطبيب فكشف عليه ثم قال لي بدهشة بالغة :

ـ ما عمر ولدك ؟

ـ تسع سنوات . . ما به ؟

ـ إن ولدك تجرع كمية كبيرة من مخدر قوي . . ربما وضع له في مشروب وهو لا يدري ! !

ـ كيف هذا . . إنني المشرفة على طعامه وشرابه . .

ـ هذا ما حدث . . وأنصحك بأن تجري له غسيلاً للمعدة الآن وتحافظي عليه جيداً . .

انصرفت بولدي إلى المستشفى فغسلت له معدته ثم

رجعت إلى المنزل فوجدت كمالاً يشرب الجوزة كعادته فسألته بحدة :

- ما الذي أعطيته للولد ؟

- وما شأني أنا بالولد ؟ إنه ولدك وليس ولدي . .

- لقد وضعتَ له في العصير مخدراً . .

- أنا لم أضع له شيئاً . . ما مصلحتي في ذلك ؟

- مصلحتك أن تتخلص منه لأنه ولد غيرك .

- أنا حقيقة لا أميل إليه ولكن ليس لدرجة أن أحاول قتله . . إنني أخاف على مستقبلي . . وسمعتي . . لا تنسي أنني رجل أعمال معروف ولي اسمي في البلد . . .

مرت شهور بعد هذا الحوار وبدأت ألاحظ على هشام ولدي الكبير أنه كثير الشرود لا يستطيع التركيز في شيء ثم أنه بدأ يقترب من كمال بطريقة أثارت دهشتي . . فلم يكن له علاقة به قبل ذلك . . بدأت أراقبهما فعرفت بالكارثة ، إن هشام أدمن الحشيش على يد كمال وبالطبع لم يُجد معه تنبيه أو زجر أو ضرب فحرت في أمري ماذا أفعل ولأولَ مرة في حياتي أقولها من قلبي : منك لله يا والدي . . ضيعني

وجعل مني صفقة ثم ضيع ولدي . . فرويت لخالتي ما حدث منذ علمت بإدمان كمال إلى ما وصل إليه حال هشام فعاتبتني بشدة على تكتمي وعدم إخباري لها منذ البداية ونصحتني بإدخال هشام مصحة للعلاج من الإدمان وبالفعل ذهبت معي به إلى المصحة وهو بعد في العاشرة من عمره وحجزنا له غرفة وعُرض على الطبيب المختص لعلاج الإدمان عند الأطفال وبدأت مرحلة علاجه وأخذت أدفع كل جنيه كنت أدخره ولم أملك أن أطالب خالتي بشيء بعد أن كبرت في السن ولم يعد لها من المال إلا ما يقيم أودها من معاش وريع يدخل لها من قطعة أرض صغيرة تملكها ورثتها عن أبيها رحمه الله . .

وخرج هشام من المصحة بعد أن انتهى كل ما معي من مال . . لكني لم أهتم فالأهم عندي هو مصلحة ولدي لكني لم أنجُ ولم ينجُ كما توهمت ذلك بل كان في انتظاري ابتلاء آخر أشد وأنكى . . فاللهم لا اعتراض على ما أجريت به مقاديرك ! !

* * *

(٨)

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ .

مرت خمس سنوات ماتت خلالها خالتي التي كانت سندي الوحيد في هذه الحياة فأظلمت الدنيا في عيني أكثر وأكثر لكن وجود أبنائي معي خفف عليّ ما أنا فيه وظللت على عهدي مع كمال . . في تنافر مستمر ، شد وجذب ، يقترب مني فأبتعد عنه بفطرتي لسوء مسلكه وانعدام ضميره ، ويبتعد عني فأحاول التقرب إليه - دون أن يمسني - حتى أحاول إبعاده عما هو فيه من حرام وآثام ، لكن الأيام والمحاولات لم تغير فيه شيئاً إلا أن صحته بدأت تتدهور شيئاً فشيئاً حتى أصبح كالهيكل العظمي أمامي ولكنه لم يبتعد عن الحشيش بل أضاف إليه البانجو وغيره حتى أصبح كالمجنون ، فبعد أن كان يتاجر في الهيروين والكوكايين ولا يقربهما أصبح يتناول منهما جرعات مضافة لمواد أخرى لا أعرفها حتى اسود لونه وكبر وجهه عشرين سنة ، وفي النهاية مرض قلبه فذهب إلى طبيب أجنبي حتى لا يفضح نفسه فقال له الطبيب بعد أن فحصه وعرف كل شيء :

ـ إنك بتدخينك للحشيش تقلل نسبة غاز الأكسجين الذي يصل إلى القلب وتزيد من كمية غاز أول أكسيد الكربون السام الموجود في الدم ، وهذه معادلة غير مطمئنة على الإطلاق ولا تسكن الروع . . .

ـ وما الذي أصاب القلب الآن يا دكتور ؟

ـ لديك اضطراب تاجي في القلب وبالتالي لا ينبغي لك أن تتعاطَ المزيد من الحشيش لأنه يسبب هبوطاً في القلب أو موتاً مفاجئاً . . .

إن حظك ممتاز لأنك تعبت الآن وإلا فلتعلم أن خمسة وعشرين بالمائة ممن لديهم اضطرابات تاجية في القلب لم تظهر عليهم مسبقاً الأعراض المميزة لمرضى القلب ، والأعراض الأولى التي تحققوا منها هي أنهم ماتوا . . !!

رجع كمال من عند الطبيب وهو أصفر الوجه فسألته عما به فأخبرني ووعد بألا يتعاطى الحشيش مرة أخرى فسألته :

ـ وبقية الأنواع . . ؟

ـ لا علاقة لها بالقلب ولن أستطيع الامتناع عن بقية الأنواع إنني أدمنتها ولا أطيق الابتعاد عنها .

ـ عالج نفسك في مصحة خاصة . .

ـ أتريدين أن تفضحيني . . أعلم أنك تكرهينني منذ زمن بعيد . . لا لن أذهب لأي مكان . . سأحاول تقليل الكميات بالتدريج . . وعموماً سأكف عن المتاجرة أيضاً . .

ـ دائماً تقول لي هذا الكلام ولا تنفذه . . ربيت أجسادنا من الحرام . . منك لله !!

ـ لا شأن لك بأموالي ، أنا المسؤول عنها أمام الله . . .

لقد تجرعت غصص الفقر وأنا طفل صغير ولن أذيقه لأولادي ، إن المعيشة الرغدة التي تعيشونها بفضل الإتجار . . ملابسك وذهبك وكل ما تملكينه من خيري بفضل الإتجار . .

ـ لا أريد أي شيء . . خذ كل شيء وسرحني لوجه الله كم طلبت منك الطلاق وأنت ترفضه !

ـ لن أتركك أبداً . . فلتتيقني من ذلك ولا تعيدي هذا الكلام مرة أخرى . .

ـ إن الله تعالى يقول : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ .

ـ دائماً تحدثينني بالقرآن والأحاديث . . أنا لا أفهم هذا الكلام ، حدثيني كحديثي . .

ـ معك لغتان تتقنهما ولا تفهم كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . .

ـ عدنا للوعظ . . قلت لك سابقاً لسنا في مسجد هنا . . من فضلك انتهى الحديث . . أين هشام ؟

ـ وما دخلك بهشام إنه ليس ولدك . .

ـ أنا أعامله كولدي ، ولا بد أن يخرج معي الآن . . أريده معي ليتعلم أمور الحياة . . يا هشام . . هشام . .

ـ نعم يا أبي . . هل سنخرج الآن . .

ـ بلى . . هيا بنا . . لا تقلقي على ولدك معي . . ربما نتأخر . . نامي إن أردت . . .

وهكذا خرجا معاً وتكررت تلك النزهات الليلية التي تستمر إلى الفجر وهشام يرفض أن يصارحني بالأماكن التي يذهبان إليها ، ويقول لي : أنا مع أبي فلا تخافي عليّ . . ثم إنني أصبحت رجلاً . . إلى أن فوجئت بهشام يجلس مع كمال في البيت يعلمه كيف يدخن سيجارة الحشيش ، فجن

جنوني وانتزعتها من فمه وأخذت أضربه وكمال يدفعني بعيداً عنه ويقول لي : ابنك صار رجلاً ماللك وماله . . دعيني أعلمه الحياة . .

ـ أبهذه القاذورات يصير رجلاً . . رحم الله والده كان نعم الرجال أدباً وديناً وشهامة ومروءة . . لكنك لست والده لذا لا تخاف عليه تريد أن تهلكه كما أهلكت نفسك ، لماذا لا تفعل ذلك مع ولدك عصام أو ابنتك عالية . . إنك مفسد فاسد كلك باطل في باطل . . لن أرجو منك بعد اليوم توبة ولكن دع لي ولدي . . دع لي أولادي كلهم أربيهم كما أريد . . .

ـ أتريدهم أن يكونوا أمثلة لخيبتك في الحياة ؟ إنك لا تتقنين شيئاً . . سوف أعلم هشام التجارة حتى يغدو رجل أعمال ناجح . . لا شأن لك به من الآن . . وسأترك لك ولديك الصغيرين تربيهما كيف شئت .

ودخلت في دوامة جديدة . . كل يوم في خلاف مع هشام بسبب إصراره على التدخين ، وياليته أي تدخين . . . إنه حشيش ، إلى أن دخل علينا الشقة ذات ليلة وقد رجع بدون كمال . . في حالة رهيبة من الهذيان وأخذ يرفع صوته

عليّ مطالباً إياي بأن أعطيه سلاح كمال لأنه يريده فقلت له : من الذي يريد السلاح ؟ قال :

ـ زوجك كمال طلب مني أن أحضره له . . هيا ناوليني السلاح . .

ـ لن أعطيك إياه يا هشام حتى يأتي كمال وأعرف منه كل شيء . . . لماذا يريد السلاح . . .

ـ سنسافر الليلة إلى الإسكندرية عبر الطريق الصحراوي ونحتاج إلى السلاح معنا للأمان فقط . .

ـ وأين كمال ؟ لماذا لم يأتِ معك ؟

ـ إنه في سهرة عمل ولذا طلب مني أن آتي بالسيارة وآخذ منك السلاح ؟

ـ هل تقود السيارة وأنت في هذه الحالة ؟

ـ كلا معي السائق عثمان .

ـ لن أعطيك السلاح حتى أسمع هذا الكلام من كمال بأذني . . .

طلبه لي على الهاتف وبالفعل قال لي كمال : أعطه السلاح . . . وسنعود غداً في الليل . . .

أعطيته السلاح واستودعته الله فلم يكن في يدي شيء سوى هذا ، لقد سحبه كمال معه إلى الهاوية . . وليس لي حيلة إلا الدعاء . .

أخذت أصلي وأدعو الله أن يرجعه لي سالماً ثم صليت الفجر ونمت في فراشي بجوار ولداي الصغيرين فرأيت في منامي أن هشاماً يمشي في ظلام دامس وأن الأفاعي تتجه إليه من كل ناحية حتى لدغته واحدة منها وأخذ يصرخ ويصرخ واستيقظت فزعة من نومي وأنا أسمع صراخه في أذناي . . وأخذت أبكي وأضرع إلى الله أن ينجيه من شر كمال لأني أعلم يقيناً أن كمال لا يحبه وأنه يريد له الشر ويريد أن يريني الشر في ولدي حتى لا ألوم عليه في شيء فإذا رأيته يشرب الخمر أو يتاجر في المخدرات يقول لي أنظري إلى ولدك إنه يفعل مثلما أفعل . . .

وهشام لا يستجيب لنصحي ولا يستمع لحديثي فماذا أفعل . . ليس لي إلا الدعاء . . وحسبي الله ونعم الوكيل . . !!

لا أعلم متى سأرتاح . . لم أرتح وأنا طفلة ولم أذق طعم السعادة إلا في السنة التي قضيتها مع خالد ثم عاودني الشقاء

مرة أخرى وها هو يصاحبني إلى الآن . . حسبي الله ونعم الوكيل!!

أخذت أنتظرهما في اليوم التالي طوال الليل دون أن يعودا أو يتصلا وظللت ساهرة حتى الصباح ففوجئت بجرس الباب يدق في الساعة السابعة صباحاً ففتحت فإذا بي أمام ضابط من الشرطة يستدعيني لأذهب لولدي في المستشفى وعرفني بأن السيارة التي كانت تقل زوجي وولدي قد انقلبت وأن زوجي قد مات وأن ولدي في حالة يرثى لها . . فأسرعت بالذهاب وأنا لا أشعر بشيء مما حولي خوفاً على ولدي فلما دخلت عليه وجدته ينازع ويتأوه وقد غُطي رأسه بالضمادات وكسرت رجله فأخذت أحدثه فلا يجيبني حتى جاءني الطبيب المختص المعالج له وشدني من ذراعي بعيداً عنه حتى خرجت من الغرفة وقال لي:

ـ للأسف الشديد لقد أصيب ولدك بفقدان كامل للذاكرة ولن يجيب عليك فقد كان مفيقاً منذ ساعة فسألناه عن اسمه وأهله فإذا به لا يعرف أي شيء . . ثم إنه مصاب بكسر في فقرتين من فقرات الظهر وهذا قد يؤدي إلى شلل نصفي إذا لم تنجح الجراحة التي سنجريها له . . أرجو منك أن تتماسكي فولدك بحاجة شديدة إليك . . علّه يسترد وعيه

وذاكـرته بـوجـودك إلى جـواره . . ونـرجـوا أن يكـون هذا الفقدان مؤقتاً بسبب الاصطدام فقد تلقى الصدمة كلها برأسه .

جلست بجوار ولدي أنتظر إفاقته وكلي أملي في الله أن يشفيه ويجعل مـا حـدث له تكفيـراً لذنوبه في حق ربه ، ولعجبي الشديد كنت حزينة على كمال ، ذلك الرجل الذي لم أجد معـه الراحة أبداً والذي لون حيـاتي بالسواد لكنها العشرة لا تهون . .

* * *

مرت أيام وأنا بجوار ولدي حتى أفاق في النهاية ولم يعرفني لكن الطبيب طمأنني وقال لي إن أهم شيء أن تنجح العملية التي في ظهره حتى لا يصاب بالشلل . .

وأجريت الجراحة ونجحت والحمد لله ودخلت في مرحلة العلاج الطبيعي وسار ولدي يتحسن بالتدريج لكنه مع الأسف لم يتذكرني بل ظل فاقداً للذاكرة كما أنه احتاج لعلاج من إدمانه للحشيش فعالجته في مصحة خاصة وبعد شفائه رجعت به للبيت فإذا هو لا يتذكر إخوته ولا بيته ولا يتذكر أي شيء فقررت أن أسترد بعض أنفاسي ثم أعالجه مهما تكلف علاجه فقد ترك لي كمال شركة التصدير

والاستيراد وكانت تلك حسنته الوحيدة لأنه حسب علمي لم يدخل فيها أي قرش حرام فاستطعت أن أزيدها بمساعدة الخبير الاقتصادي الخاص بالشركة ومنّ الله علي بأرباح معقولة أحسن ما فيها أن رزقها حلال ، وتابعت علاج ولدي هشام وبحمد الله بدأت ذاكرته تعود له تدريجياً ورغم أن العلاج كان طويلاً في مدته إلا أن نفسيتي بدأت تهدأ وبدأت علاقتي بالله تتحسن بعد أن عرف المال الحلال طريقه إليّ وإلى أبنائي . .

وبعد سنة واحدة شفي ولدي واسترد كامل عافيته وبدأ يعود لدراسته التي تركها فترة طويلة بسبب ما مر بنا من ظروف قاسية .

أما عن والدي فقد توفي في تلك الآونة ولحقت به أمي فترحمت عليهما ودعوت لهما بالمغفرة والرحمة من الله وزرت قبريهما بعد فترة وقرأت لهما الفاتحة . .

وأما عن إخوتي فقد ظلوا على شقاقهم معي ونفورهم مني خاصة بعد أن طالبت بميراثي الشرعي منهم عن طريق المحكمة بعد أن فشلت معهم الطرق الودية . . وأحسست أن حياتي بدأت تستقر وأن سفينتي بدأت تتجه نحو شاطيء

الأمان بعد كل تلك العواصف والهوجاء . . والأعاصير المدمرة !!

* * *

ومرت سنوات تلو سنوات ، كبر أولادي وتزوجوا ، وكبرتْ سني وجرت فيّ سنة الحياة وهأنذا أحيا على أمل أن ألقَ الله وهو راض عني راجية أن يغفر لي زلاتي ويقيل عثراتي وسأظل فيً هذه الدنيا حتى يذكرني الموت وتسلوني الحياة فأمضي كما مضى الآخرون وسبحان من هو الباقي الذي لا يزول﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ .

اهـ

(٢)

الأرض والدم

يختال كالطاووس فوق الأبرياء

في الصبح يشرب دمعهم

في الليل يسكر بالدماء

ويقول إن الحكم شيء

من صفات الأنبياء

وبأنه رب الخليقة حينما يعطي

ويمنع ما يشاء

وبأنه قدرٌ

إذا ما قال شيئاً لا يُرد له قضاء

بالأمس مات . .

لمحوه ليلاً والكلاب تجره

والقبر يلفظه وتلعنه السماء

كانت طوابير النفاق تطوف حول رفاته

تدعو له والله يرفض أن يجيب لهم دعاء

وعلى بقايا القبر فئران وأشلاء يبعثرها الهواء

لم يبق غير الصمت واللعنات

تطلقها قلوب الأبرياء

لم يبق فوق الوجه غير عناكب الأيام

ترقص فوق أشلاء الحذاء

اللهُ يا اللهُ . . يا اللهُ

أنت الواحد الباقي

وعصر القهر يطويه الفناء

كل الطغاة وإن تمادى ظلمهم يتساقطون

وأنت تفعل ما تشاء(١)

* * *

تقف ببابه يكاد الذل يقتلها علّه يرحم دمعها وأنين فؤادها لكنه جلمود صخر لا يأبه للضعف ولا للمسكنة ، أخته هي . . لكنه لا يرعى لها أخوة ولا ذمة ولا رحماً ولا قربى . .

---

(١) فاروق جويدة : الديوان صـ٤٦٦ ، ٤٦٧ ـ بتصرف ، مركز الأهرام للترجمة والنشر .

هكذا عـوّده أبوه : أن يحـيـا مـجـرداً لأهوائه ونزواته دون مشاعر أو أحاسيس . . علّمه أن الحب ذلة وأن النبل ضعف ، علمه أن القسوة سطوة وأن العزة بالإثم منعة وعزة وكرامة ، علمه كل ما عاش عليه ورحل عليه تتبعه اللعنات وتغلق في وجهه أبواب السماوات ، رحل وتركه فكأنه لم يمت . . وترك له ميراثاً كبيراً لا تأتي العين على آخره . . أرضاً وخدماً وماشية وعقارات . . ترك له كل ذلك في حراسة مبادئه الرهيبة : كن ذئباً حتى لا تفترسك الذئاب ، كن الظالم ولا تكن المظلوم ، لا مجال للشفقة ولا مكان للرحمة في حياتك وإلا استضعفك العبيد وثاروا عليك . .

وأخيراً . . لا تورث بنتاً فإن ميراثها سيغدو إلى غريب لا محالة !!

وهكذا كان يعيش في الرياش بينما أخته المسكينه تنام على الحصير وتلبس الخشن من الثياب . . ويرفل في النعيم وهي لا تجد قوت يومها إلا بالعمل طوال اليوم في الحقول بالأجرة الزهيدة . . .

وصبرت وتحملت فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الشكوى ولا رجاء في العتاب لأنها تعرف قلبه الحديدي . .

ثم إنها اعتادت على معيشتها . . وهى تملك ما لا يملكه . . تملك حب الناس ذلك الكنز الذي لم يأخذ منه شيئاً ولا يدرك هو قيمته فحب الناس كنزها الحقيقي . . .

أما هو فالناس يكرهونه لأنه جمع المال وما جمع جميل الخلال . . أجل لقد كان متكبراً بخيلاً . . أما الكبر فقد كان يأنَف أن يقف جوار الفقير في صلاته - أجل كان يصلي رغم كل ما فيه فقد ظن أن الصلاة وحدها هي العبادة - لم يكن يعلم أن ذلك الفقير الصعلوك الواقف بجانبه لا يستطيع مهما نال منه العدم وبرّح به الشقاء أن يقتطع قطعة من سعادته أو يفتلذ فلذة من شرفه . . ثم إن الذي وقف بين يديه في مصلاه أجلُّ شأناً وأعظم خطراً من أن يحفل بثوبه اللامع وجبينه الساطع وردائه المطرز وقميصه المحبر . .

وليست العظمة أيها العظماء إلا منحة من منح الفقراء عليكم وحسنة من حسناتهم إليكم ؛ فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم ولولا تصاغرهم فى حضراتكم ما استكبرتم . .

وأما البخل فقد كان يبخل أن يواسي بدرهمه مسكيناً أو يعطف على أرملة بدينار . . ذلك أن حب المال ملك عليه

قلبه فشغله عن النظر فيمن حوله فلم يُعرف متفقداً للمسكين ولا متعطفاً على يتيم . . فأبغضه الفقراء ونافقه الأغنياء فإن الغنى لا يعرف الغني إلا لمصالح مشتركة بينهما فإذا دامت المصلحة دامت المودة وإذا انقطعت المصلحة انقطعت المودة ، وذلك هو عين النفاق !

ألا ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان وما أقسى قلوبهم ! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يُرعد برداً ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام ولا ينغص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تثب أحشاؤه شوقاً إلى فتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها . .

❊ ❊ ❊

واعتادت أن تدعو الله أن يسترها ويرزقها برجل يساعدها على تحمل شظف العيش ويغنيها عن أخيها وعن مال أبيها الذي حُرمته فلحقتها الرحمة الربانية ولحظتها العناية الإلهية وأحبها رجل حميد الصفات لكنه فقير الحال يعمل باليوم مع العمال فبادلته مشاعره النبيلة ووقفت بباب أخيها وقفة امرأة ليس بيدها حيلة راجية أن يمن عليها ويرضى

أن يكون وكيلها في هذه الزيجة إلا أنه أبى وتكبر وأنف منها ومن حالها وازدرى خطيبها وقال لها : إذا أردت أن تتزوجيه فاغربي عني بعيداً به . . !

وهكذا كان ، فقد يمت وجهها شطر حياتها الجديدة داعية ربها أن يغنيها عن الحاجة لأخيها مهما كان ، وعاشت مع زوجها حياة سعيدة رغم بساطة المعيشة ورقة الحال وأنجبت منه ولداً وبنتاً كملت بهما سعادتهما ، إلى أن جاء يوم مرضت فيه ابنتها واشتد بها المرض فأنفقت عليها كل ما تملك هي وزوجها من مال لكن الابنة لم يبرح المرض جسدها الصغير الواهن فلجأت إلى الاستدانة لتكمل علاجها فرفض الناس أن يقرضوها وقالوا لها : أيكون لك أخ مثل أخيك وتستديني ؟!

فاضطرت أن تذهب إلى أخيها من أجل ابنتها لكنه قابلها وزوجها شر مقابلة ورفض أن يعطيهما درهماً واحداً فقال له زوجها : إنك أخذت حق أختك وسكتت وصبرت وعاشت كما يسر الله لها عيشة الفقراء المعدمين ، أفبعد كل هذا ترفض أن تساعدها بدراهم بسيطة إذا احتاجت إليك وأعوزها الزمان إلى يديك ؟!

فما كان من أخيها إلا أن طردهما شر طردة وهدد زوجها إن طلب شيئاً منه بعد ذلك بأن يقتله !

أجل فعل كل ذلك سطوة وتجبراً وظلماً وعدواناً ، وخرجت أخته كسيرة من عنده تدعو الله عليه وترجوه أن يريها فيه يوماً أسوداً وينتقم لها منه أشد انتقام . .

ومرت أيام والابنة تعاني إلى أن وصلت لمرحلة متأخرة وصارت على مشارف القبر فصارت أمها تبكيها أشد البكاء وأبوها يلهث يميناً وشمالاً يبحث لها عن مال من أجل أي دواء . . .

لكن الأجل كان قد حان وماتت الابنة الصغيرة في حجر أمها ودموع أمها تنحدر على وجهها البريء الطاهر . .

فدفنها أبوها بعد أن غسلها وكفنها وظل يبكي وأمها عليها بكاء شديداً ويدعوان على من ظلمهما وبخس أمها حقها دعاء يصل إلى عنان السماء فتؤمن عليه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وويل للظالم من دعاء المظلوم ، يقول الله تعالى للمظلوم : «وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين » واستجيبت الدعوات . . فقد فزعت القرية ليلة على صوت صرخات وطلقات وإذا بالظالم يصرخ ويتخبط في

دمائه فقد قتله أحد أعدائه ولم يجد راحماً واحداً يترحم عليه فقد كانت القرية كلها تبغضه وتلعنه وتدعو الله أن يخلصها منه .

وصارت الأموال كلها إلى أخته المسكينة فصارت بعد فقرها غنية عن السؤال وبعد ذلها في قومها عزيزة لكنها عاشت رحيمة بالخلق عطوفة على المحتاجين والأرامل والمساكين . .

وهكذا حال الدنيا تتحول من حال إلى حال ولا تبقى أبداً على حال !

* * *

(٣)

وفاء بوفاء

لو خانت الدنيا وخآن الناس

وابتعد الصحاب

عيناك أرض لا تخون

عيناك إيمان وشك حائر

عيناك نهر من جنون

عيناك أزمان وعمر

ليس مثل الناس شيئاً من سراب

عيناك آلهة وعشاق وصبر واغتراب

عيناك بيتي

عندما ضاقت بنا الدنيا وضاق بنا العَذاب [١]

* * *

الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس أو مشهد من مشاهد الشقاء .

---

(١) فاروق جويدة : الديوان صـ٢١٧ ـ .

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً أو أساء إلى ضعيف مسكين . . هو الحمرة التي تلبس وجه الحيي خجلاً من الطارق المتاب الذي لا يستطيع رده ولا يستطيع مد يد المعونة إليه .

هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورة من ضرورات الحياة .

هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه أو ممالأة عدوه .

الخلق هو أداء الواجب لذاته بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج ، فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء ومن أي طريق أراد .

ومن أنبل الأخلاق خلق الوفاء ذلك أنه من شيم النفوس الشريفة والخلال الحميدة يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون وصدق من قال :

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها

ولا تجود يد إلا لما تجدُ

فلا تعد عـدة إلا وفيـت بـها

واحذر خلاف مقالٍ للذي تعـدُ

كانا متحابين كأشد ما يكون الحب ، ألف الله بين قلبيهما حتى صار قلباً واحداً إلا أن غدر الزمان أصابهما فلفقت له قضية وشهد ضده شهود زور فزج به في السجن وحكم عليه بعشر سنوات ، فنذرت نفسها له ولحبه وآلت على نفسها ألا تعرف بعده رجلاً أياً كان ووعدته أن تخلص له حتى يخرج لها من السجن مهما طالت سنوات سجنه فقال لها : سنوات السجن طويلة وأنا لا أرضى لك ضياع العمر فلا تحمليني هماً فوق همي واختاري لنفسك طريقاً غير طريقي فطريقي مظلمة مليئة بالأشواك . .

فقالت له وقد أمسكت راحتيه بكلتا راحتيها : لن أرضَى عنك بديلاً وليكن ما يكون . سأتحمل أي شيء في سبيلك ولن أضيع حبنا هدراً . . فدع عنك أية محاولات لإثنائي عن عزمي فأنا ملك لك وحدك ولن يمتلكني غيرك أبداً .

ـ لن يدعك أهلك وشأنك . . ولهم حق في ذلك .

ـ لا تخف على أنا قوية بحبك لي وبحبي لك وسأصمد أمامهم فكن واثقاً فيّ يا حبيب العمر ، إن حبنا عظيم

وسيتغلب على أية صعوبات بإذن الله ، لقد ملكت نفسي عليّ وأحرزتها دوني حتى لا أعرف لي فيها مأرباً . . .

ـ لقد كبرت في عيني وعظم شأنك في قلبي ، لقد أحببتني كما لم يحبني أحد قبلك ، لقد عشت دهراً طويلاً بين أقوام لا يعنيهم أمري ولا يهمهم شأني وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا يستطيع أن يتحمله بشر فسمعت من يسألني عن حالي ومن يقول لي ما أشد جزعي لمصابك ومن يتباكى رحمة بي وحناناً عليّ ولكن لم أر بجانبي عيناً تدمع ولا قلباً يخفق . . . أما اليوم فقد رأيت بجانبي القلب الذي يخفق لأجلي ، والعين التي تدمع عليّ ، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي فقليل لها مني أن أمنحها حياتي . . .

لقد كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقداً ، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل لأن حبك ملأ عليّ قلبي واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه .

قبل أن تأتيني كنت ضيق الصدر بسبب ما مسني من ضر فأصبحت الآن فسيح رقعة الحلم لأني قنعت بسعادة الحب فأغفلت بجانبها جميع أنواع السعادة .

قبل أن ألقاك كنت شديد القسوة متحجر القلب لا أعطف على بائس ولا أحنو على ضعيف فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري وأتالم لبؤس البائسين وحزن المحزونين لأن حبك أشرق في قلبي فملأه نوراً فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب .

ـ من أجل كل ذلك يا سيدي سأتحمل في سبيلك كل شيء فكل شيء يهون في سبيلك .

وتفرق الحبيبان بجسديهما ، فرقت بينهما أسوار السجن القاسية لكنّ قلبيهما كانا في بوتقة واحدة وكانت تزوره باستمرار ، وصادفتها بالطبع مشاكل كثيرة مع أهلها لكنها صمدت وواجهت وأقنعتهم بحبها له حتى صار والدها مقتنعاً ببراءته وحسن نيته تجاه ابنته وذهب لمقابلته فاقتنع به أكثر وأكثر ، أما والدتها فظلت على موقفها المُعادي له ولم تقتنع به البتة . . وأما هي فظلت على صبرها وعهدها معه ، كانت تحيا بأمل يقترب كلما مرت الأيام . .

وبالفعل مرت الأيام والشهور والأعوام ، مرت عشر سنوات كاملة لم تغير من حبهما شيئاً . . وخرج لها وقلبه طائر من الفرحة ليجدها في انتظاره أمام باب السجن الضخم

فأمسك بيديها بين يديه وقلبهما ثم رحلا بعيداً عن أسوار السجن ليبدآ حياة جديدة يملؤها الحب والأمل .

تزوجا واستطاع بمثابرته وجهوده أن يبدأ من جديد وهي بجواره تساندە وتشجعه حتى بدأ يخط اسمه في عالم التجارة والربح ، وأنجبا ولداً كان بهجة حياتهما وقرة عينيهما ورث من حبهما لبعضهما حناناً كبيراً ودماثة في الأخلاق ورقة في الطباع فكان نعم الولد الصالح الكريم لأبويه الصالحين الكريمين . . إلا أن غدر الأيام عصف بحياتهم وزلزل الأرض تحت أقدامهم ذلك أن الحبيبة الوفية أصابها مرض عضال ذهب ببهاء وجهها ورونق جمالها فذبلت ذبول الزهرة لكن رائحة روحها النبيلة كانت باقية في كيانها تنشر لحبيبها وولدها من أريج عطرها حتى وهي ذابلة واهنة . .

واستمر الجسد يستقبل مضاعفات المرض حتى أصابها شلل فصارت كسيحة لا تقدر على الحركة ومع ذلك فقد صبر عليها زوجها وصار يجالسها صباحه ومساءه ، ويحادثها محادثة الصديق ويلطف بها جهده ويروح عن نفسها ما يساورها من الكروب والأحزان ويقول لها :

لا تجزعي ولا تحزني فإنما أنا رجلاك اللتان بهما تسيرين

ويداك التي بهما تبطشين . . . أعيذك بالله ورحمته والعهد وذمامه أن تجعلي للخواطر السيئة - خواطر الطلاق أو الفراق - سبيلاً إلى نفسك فإنك لم تسيئي إليّ حتى أسيء إليك ولم تنقضي عهدي حتى أنقض عهدك وإلا فلنثأر من القدر إذا استطعنا .

يا زوجتي الحبيبة : إن عجزاً من الرَّجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه ويعتدي على من لم يعتدِ عليه .

لقد خَسرتُ صحتك لكني ربحت قلبك ، وحسْب الإنسان من لذة العيش وهنائه في هذه الحياة قلب يخفق بحبه ولسان يهتف بذكره . .

لقد أسعدتني زماناً طويلاً فليخفق قلبي حناناً عليك بقدر ما خفق سروراً بك .

لو كنتُ مكانك لا أحسب أنك كنت تاركة لي أو مغفلة أمري فلأحرص الحرص كله على ألا تكوني - وأنت المرأة الضعيفة - أسبق مني إلى فضيلة الصدق والوفاء .

وبالفعل ظل على هذه الحال معها زماناً ليس بالقصير حتى فرقهما هادم اللذات ومفرق الجماعات وهذه هي سنة

الله في كونه . . حياة وموت . . صحة ومرض . . سجن وحرية . . فقر وغنى . .

فيا أيها الإنسان عليك بخلق الإحسان وما يطويه من شمائل أهمها الوفاء والصدق والمروءة فبذلك تفوقت على جنس الحيوان فإياك أن تنتكس بفطرتك التي فطرك الله عليها ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ .

* * *

ا.هـ.

(٤)

الزوجتـــــان

تزوج اثنتين لا لأنه كان شغوفاً بالنساء مولعاً بهن ، لكن ظروفـه هي التي أدت به إلى ذلك ، تزوج الأولى غنيـة من عائلة رفيعة النسب كريمة الأصل لكنّ أخلاقها كان بها عوج عظيم . . مغرورة حمقاء شتّامة عيّابة فعاش معها في شقاء لا نهاية له . . لكنه تحملها وصبر عليها وحاول جهده سنوات معها ليصلح ما اعوج من أمرها لكنها أبت عليه وتمردت طباعها وغلبه سوء خلقها فبات معها في أسوأ حال ، يدعو عليها صباح مساء تلعنها الملائكة يقظانة أو نائمة ومع كل ذلك لم تكن تنجب بل كانت عاقراً ، فأراد الله أن يجزيه خيراً عن صبره فرزقه بالزوجة الثانية . .

عرفها في إحدى أسفاره للتجارة . . لم تكن بجمال الأولى ولا بنسبها ولا بكريم محتدها لكنها بخصالها الطيبة وشمائلها الحميدة فاقتها جمالاً ونسباً ومحتداً . . فكما قيل : الجمال جمال الروح ، وحملت منه وشاء الله أن يكون المولود ذكراً فطار قلبه فرحاً ، وكيف لا وهو الثري صاحب التجارات والأملاك يرجو أن يرثه ولده ولا ترثه زوجته

الحمقاء فتضيع تعبه وشقاءه هباء . . ثم إنه يريد أن يمد الله في ذكره بعد مماته ويتمنى كأي مؤمن دعوة صالحة تصله في قبره بعد موته من ولده فترفع عنه كربات وتغفر له زلات وخطيئات !

وحرص على ألآ تعرف زوجته الأولى شيئاً عن زواجه حتى لا تفسد عليه هناءه وسعادته فتقلبهما إلى شقاء وتعاسة فبئس المرأة هي ، لكن الأيام أبت أن تكتم فرحته لسبب لا يعلمه إلا الله وحده ولحكمة جليلة لا تظهر لعباد الله الضعفاء وكما يقال : أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد !

عرفت زوجته بنبأ زواجه من حاقد شامت منافق حاسد يستكثر عليه ما هو فيه من نعمة ، وكانت زوجته الثانية في المشفى تضع ولدها الثاني . . فإذا به يفاجأ بالأولى تقتحم عليه غرفة الانتظار بالمشفى صارخة شاتمة فاضحة ـ كعادتها ـ وأبت أن تسكت أو تهدأ فلطمها على وجهها فقامت قيامته . . هاجت وماجت وأخذت تكيل له الصفعات واللكمات وهو الرجل لا يستطيع أن يرد عن نفسه حتى زاد تماسكه عن حده فرمى عليها يمين الطلاق . . هنا كانت الحجرة قد امتلأت بالمتفرجين والغمازين فجلس على كرسيه منهاراً وبينما هو على حالته تلك إذ بالبشارة تأتيه بميلاد ولده الثاني

فحمد الله وهدأت نفسه الثائرة ثم ترك الحجرة بمن فيها وأسرع خلف من بشره فنفحه عدة دنانير . . ففوجيء بطليقته تمسكه من قفاه وتلعنه وتسبه لأنه أنجب من غيرها ولم يتحملها فنظر إليها نظرة حادة فألقى الله الرعب في قلبها منه فجرت من أمامه شعثاء لا تلوي على شيء ، ولم يُلقِ لها بالاً .

وانصرف إلى زوجته الثانية الحبيبة إلى قلبه وولده الجديد وأخذ يلاطفها ويخفف آلامها ويقبل وليده ويحتضنه . . ومرت أيام بعد ذلك الحادث فذهب إلى أهل طليقته ليعطيها حقوقها عنده من مؤخر ونفقة ففتح له أبوها وقال له بصفاقة : لا نريد منك شيئاً ، لقد ضيعت حقوق ابنتنا وها هي الآن ترقد في مصحة عقلية بعد أن أصابها بسببك الجنون ، ورغم كل ما فعلته تلك المرأة معه إلا أنه حزن من أجلها حزناً لا يعلمه إلا الله وذهب من فوره لزيارتها .

فقابله الطبيب المختص وأسرّ له بحالتها وأخبره بأنها تعاني من هيستيريا شديدة ويخاف عليه أن رأته أن تؤذيه . . وجعله يلقي عليها نظرة من فتحة بالباب فإذا هي في أسوأ حالة من الجنون والخبال والاضطراب فسأل الطبيب إن كان بيده شيء يفعله من أجلها وحكى له عن قصته معها فرثى

الطبيب لحاله ونصحه بعدم المحاولة معها أبداً فحالتها خطرة فرجى الطبيب أن يعلمه بكل تطورات الحالة أولاً بأول فوعده الطبيب بذلك .

مرت ستة شهور والزوج الطيب يتصل كل مدة بالمصحة فيحدث الطبيب ليعلم منه تطورات الحالة النفسية والعصبية لطليقته فأخبره الطبيب بأن الحالة قد تحسنت كثيراً من أثر العلاج وأنه ربما استطاع أن يكلمها ويراها الآن فأسرع من توه إليها فلما دخل الغرفة بدت له هادئة وديعة فأخذ يقترب منها ويحادثها ويذكرها بسالف عهده معها وبره بها وكيف أنه لم يتزوج عليها إلا لينجب ولداً يرث ثروته العريضة فوجد منها ليناً في الحديث وبشاشة في الوجه فاطمأن قلبه وسكنت نفسه .

فطلب من الطبيب أن يسمح له بردها إلى عصمته ولو في المصحة ليكفر عن خطئه في حقها حين طلقها ثم ذهب إلى أهلها فأرضاهم وصالحهم ودفع لهم مهراً جديداً لابنتهم واصطحب والدها وأخاها إلى المصحة وعقد عليها من جديد . .

وبعد أن تماثلت تماماً للشفاء اصطحبها لبيت جديد تحيط به حديقة واسعة وأخبرها أنه ملك لها وأن بإمكانها أن تتنزه

في حديقته كما يحلو لها وأخذ يمازحها ويلاطفها وهي في كل ذلك تبدي ليناً ومسالمة وتحادثه حديثاً جميلاً وتبدي أسفها عما بدر منها في حقه في سابق عهدها معه وطلبت منه أن يسمح لها بالتعرف على زوجته الأخرى لأنها تحب أن تعرف ولديه فهي عاقر وتتمنى أن يصبحا ولديها .

فكر مع نفسه فوجد أنها قد تغيرت إلى أحسن حال فأبت نفسه الطيبة إلا أن ترضيها فذهب لزوجته الثانية وأسرَّ لها بدخيلة نفسه فقالت له : على الرحب والسعة لكنني أخشى على ولدينا منها فقد كانت تكن لنا العداء والبغضاء ثم إنها كانت نزيلة لمصحة عقلية وأخشى أن يعاودها الداء فتؤذي ولدينا .

فأجابها قائلاً : لا تخشي شيئاً فقد تبدل حالها ولم تعد تلك المرأة المشاكسة الغضوبة وأنا أضمنها لك بنفسي . . فأعطيها فرصة لتكون واحدة منا حتى لا نكون عوناً للشيطان عليها فنجعل وحدتها سبباً في رجوعها لسابق عهدها من البغض والعداء لنا جميعاً . .

وهكذا كان . . فقد اصطحب زوجته وولديه لبيتها فاستقبلتهم استقبالاً حسناً وأخذت تقبل الولدين وتداعبهما

وأصـرت على أن يقـيـمـوا عندها أيامـاً حـتى تأنس بهم وتستروح من عنائها السابق . . .

فبدا للرجل الطيب أن يقبل دعوتها فترك زوجته وولديه في صحبتها وسافر لبعض أشغاله وهو يدعـو الله أن يديم الحال على ما هو عليه ومن ناحيتها فـقـد أخذت تتودد إلى زوجتـه الثانيـة وتتـحـدث معـهـا حـديث الأخت لأختـهـا والصديقة الصدوقـة لصديقتـهـا وتعتـذر عـمـا بدر منها في السابق وتعدها بأجمل الوعـود . . لكن الزوجة الفطنة أبداً ما اطمأنت إليها فعاملتها بالحسنى لكنها ظلت حذرة منها أشد الحذر . .

وذات ليلة بينمـا الزوجة نائمة بـولديهـا في غرفـتـهم إذ بباب الغرفة يفتح بحذر وتدخل منه تلك المرأة ومعها سكين حادة وأخذت تقتـرب من الولدين وهـمـا بفراش أمهـمـا ثم رفعت السكين لتدخلها في جوف الطفل الرضيع فإذا بالأم تصرخ فزعة فتسقط السكين من يد صاحبتها لكنها لا تترك الغرفة بل تشتبك في عراك مع أم الولدين والولدان يصرخان حـتى إذا قـاربت المرأة المجنونة من خنق الأم دخل الزوج المسكين وبيده سلاحه الذي كان بحوزته فأطلق عليها النار فسقطت جثة هامدة .

وأتت الشرطة وقبضت على الرجل المسكين واتهمته بقتل المرأة المريضة كما وصفها أهلها في التحقيقات ورفضت الشرطة أن تقبل شهادة زوجته فيه بأنه كان يدافع عنها وعن الولدين وكاد الرجل أن يهلك بسبب تلك الآثمة المجنونة إلا أن الله أرسل له خادمة البيت فشهدت بكل ما رأت وسمعت في تلك الليلة المشئومة فبرأه القضاء وعاش ما بقي من عمر يحمد الله على نعمة النجاة .

ا.هـ

الجمعة ٨/٥/٢٠٠٩م


المحلة الكبرى

* * *

الفهرس

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٢٧٧٢
الترقيم الدولى ١ـ٧٩٩٣ـ١٧ـ٩٧٧


فى أودية الحرمان
مجموعه قصصية
بقلم
سميه عبد الحليم عويس